البراجماتية وموقفها من الميتافيزيقا

إعداد

دكتور/ أحمد البدوي سالم محمد سالم

مدرس العقيدة والفلسفة

في كلية أصول الدين والدعوة بالزقازيق- جامعة الأزهر

ملخص البحث

موضوع البحث: "البراجماتية وموقفها من الميتافيزيقا"

إعداد دكتور/ أحمد البدوي سالم محمد سالم
مدرس العقيدة والفلسفة
في كلية أصول الدين بالزقازيق- جامعة الأزهر.

يهدف البحث إلى دراسة البراجماتية، والتي تعد واحدة من أهم المذاهب الفلسفية المعاصرة، فهي أول مذهب فلسفي ينتسب إلى الولايات المتحدة الأمريكية، بعد أن كانت محل استقبال للفلسفات الأوروبية منذ هجرة الأوروبيين إليها، ولم يكن مصطلح البراجماتية يستخدم كثيرًا في اللغة الإنجليزية، كما أنه لم يكن مشهورًا في الدراسات الفلسفية، حتى قدمه الفيلسوف الأمريكي "تشارلز بيرس" المؤسس الأول للبراجماتية، ولم يذكره قبله إلا الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط، في كتابه "نقد العقل الخالص"، كي يعبر به عن علاقة تحديد الأهداف الإنسانية بعضها البعض.

والبراجماتية اسم مشتق من اللفظ اليوناني براجما "Pragma"، وتعني "العمل"، ويفيد الأصل اللغوي للكلمة ما هو عملي، ومن هنا أطلق عليها اسم "الفلسفة العملية"؛لأنها تجعل من العمل مبدأً مطلقًا، فهي منهج عملي يسعى إلى إيجاد حل للمشكلات والقضايا بما يحقق التوازن بين المبادئ والاتجاه العملي.

والبراجماتية تيار فلسفي أمريكي تأسس على يد بيرس، ووليم جيمس، وجون ديوي، قوامه أن السبيل لفهم المفاهيم لا بد أن يؤسس في ضوء مضامينها العملية، وأن وظيفة الفكر توجيه العمل، وأن الحقيقة في المقام الأول لا بد من اختبارها من جهة العواقب العملية للاعتقاد.

وقد تكونت الدراسة من ثلاثة مباحث، الأول: تعريف البراجماتية، ونشأتها، وأشهر روادها، والثاني: التفسير البراجماتي للحقيقة؛

باعتبار أن المنهج البراجماتي انطلق من تفسيره للحقائق، فاستبدل المنهج المثالي المتعالي بمنهج تجريبي استقرائي، وكيف وجه البراجماتيون النقد للفلسفة العقلية والتجريبية السابقة، فالحقيقة عند البراجماتيين هي الفكرة الناجحة، النافعة، والفرضية العلمية التي تحققها التجربة.

ثم بيَّن المبحثُ الثالثُ موقفَ البراجماتية من الميتافيزيقا، فمنهج البراجماتية يقوم على أن الميتافيزيقا لا يتم دراستها دراسة صحيحة إلا إذا تخلصت من التفسيرات اللاهوتية، والمثالية، ولا يتم ذلك إلا ببحثها عن طريق مناهج العلوم التجريبية، وهذا التفسير من الخطورة بمكان.

الكلمات المفتاحية: البراجماتية، الأداتية، الذرائعية، الميتافيزيقا، التجريبية، الحقيقة، تشارلز بيرس، وليم جيمس، جون ديوي، الفلسفة الأمريكية.

Abstract

Pragmatism: Its Stance on Metaphysics

By

Dr. Ahmed Al-Badawi Salem

Lecturer of *Aqeeda* and Philosophy,

Faculty of Theology, Az-Zagazig, Al-Azhar University

This paper attempts to study pragmatism as one of the most important contemporary philosophical traditions. Actually, pragmatism is the first philosophical tradition that originated in the United States which used to receive the European philosophies since the European emigration waves. The term "pragmatism" was not much used in English, nor was this term well-known in the philosophical literature until Charles Peirce, the American philosopher known as the founding father of pragmatism, introduced it. However, it was the German philosopher Immanuel Kant who referred to this term before Peirce in his Critique of Pure Reason to clarify the relationship between human objectives.

Etymologically speaking, Pragmatism is derived from the same Greek word *pragma* meaning action, from which the words 'practice' and 'practical' come. Based on this root, Pragmatism is dubbed as "Practical philosophy" because it considers practice or action as an absolute principle. Pragmatism, in fact, is a practical approach attempting to find solutions for issues and problems in a way that maintains balance between principles and practice.

Pragmatism, as an American philosophical tradition introduced by Charles Peirce, William James and John Dewey,

maintains that the suitable way to comprehend concepts has to be founded on their practical connotations; intellect is to guide and illuminate action and truth primarily needs to be scrutinized against the practical consequences of doctrine.

This study is divided into three sections where the first one provides the definition and origin of pragmatism along with its leading figures. The second section deals with the pragmatic explanation of truth in which pragmatism employs an empirical inductive method instead of the idealistic one, highlighting the pragmatic critique of other empirical and intellectual philosophy. For pragmatists, truth is the successful useful idea and scientific thesis brought about by experience.

The third section highlights the pragmatic stance on metaphysics. Actually, the pragmatic approach is based on the fact that metaphysics cannot be correctly investigated unless it dispels theological and idealistic explanations, which in turn can only be achieved via empirical science.

Key words: Pragmatism, Instrumentalism, Metaphysics, Empiricism, Truth, Charles Peirce, William James, John Dewey, American Philosophy.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمدُ لله، والصلاةُ والسلامُ على سيدِنا رسولِ الله، صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وأتباعِهِ، ومن سارِ على هدْيِهِ إلى يومِ الدينِ، وبعد:

نشأت البراجماتيةُ، وأخذت صيغتها الواضحة المؤثرة في الولايات المتحدة الأمريكية في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، وأصبحت واحدةً من الاتجاهات الفلسفية البارزة في القرن العشرين، فصارت من أهم المذاهب في الفلسفة المعاصرة، وهي أول مذهب فلسفي ينتسب إلى الولايات المتحدة الأمريكية، بعد أن كانت محلَّ استقبالٍ للفلسفات الأوروبية، فظلت الولايات المتحدة متأثرةً بما يحمله المهاجرون من تيارات ومذاهب فلسفية؛ حتى ظهرت البراجماتية أو المذهب العملي كأول مذهبٍ وليدٍ في الأرض الجديدة، حتى أصبح المذهب المعبر عن الفلسفة الأمريكية.

نشأتِ البراجماتيةُ في زمنٍ تميز بكثرة الإنتاج العلمي الفلسفي، والاكتشافات العلمية، وفي بلدٍ هيأته الظروف للعمل، فصارت الفلسفةُ خادمةً للعلم، وولت الفلسفة وجهها قِبَلَ الثورةِ العلميةِ، فصار المعملُ والتجريبُ في العصر الحديث ميدانًا للفلسفة كما هو ميدانٌ للعلوم، العلوم تجري التجارب وتنتج النتائج، والفلسفة وراءها تحلل وتشرح وتستخرج المضمون وما يقتضيه بالنسبة للحياة الإنسانية؛ فظهرت في هذه الأجواء التياراتُ الماديةُ المعارضةُ لكلِّ ما هو دينيٌّ كالتطورية والوجودية والماركسية، ثم ظهرت البراجماتية لتكون منهجًا مفسرًا للفكر المادي الحديث والمعاصر.

وكان بدايةُ الانطلاق للبراجماتية من النادي الذي أسسه "تشارلز ساندرز بيرس" –المؤسس الأول للبراجماتية–؛ في يناير من عام ١٨٧٢م بمدينة كامبريدج، بولاية ماساتشوستس الأمريكية، ليجتمع بالباحثين ليتبادلوا الآراء النقدية للميتافيزيقا، وقد بين "بيرس" حقيقة البراجماتية في المقال الذي كتبه بعنوان: "كيف نجعل أفكارنا واضحة؟"، والذي نشره في عدد يناير ١٨٧٨م، في مجلة "Popular Since Monthly"": "إننا لكي ننشئ معنى فكرة، فكل ما نحتاج إليه فقط هو تحديد أي سلوك تصلح لإنتاجه: إن المسلك بالنسبة لنا هو مغزاها الوحيد الذي

يعول عليه، وإن الحقيقة الملموسة البينة التي هي المنشأ الأصلي الجذري لكل تمايزاتنا بين الأفكار، مهما تكن خفية ومستورة، فلا توجد فكرة واحدة منها على سبيل الحصر تبلغ حدًّا من الدقة والرقة بحيث لا تتألف من شيء سوى تمايز ممكن في المزاولة العملية"(١).

وكان من الرواد الأوائل للبراجماتية وليم جيمس، الذي أطلق عليه برتراند راسل: "الزعيم المميز للفلسفة الأمريكية"(٢).

وثالث رواد البراجماتية جون ديوي، الذي لقبه "برتراند راسل" بأنه الفيلسوف الحي القائد للفلسفة في أمريكا، وأنه صاحب نفوذ عميق ليس بين الفلاسفة، وإنما أيضًا بين طلاب التربية والجمال والسياسة، وقد كان انشغال جون ديوي بالتربية وجعلها في صدر اهتماماته السببَ الرئيسَ في استحواذه على التربية في الولايات المتحدة الأمريكية، حتى إن "برتراند

(١) جيمس، وليم، البراجماتية، ترجمة الدكتور/ محمد العريان، ط دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٥م، صـ(٦٥).

(٢) راسل، برتراند، تاريخ الفلسفة الغربية، ترجمة الدكتور محمد فتحي الشنيطي، طبعة الهيئة المصرية للكتاب، ٢٠١٢م، (٣/ ٤٠١).

راسل" تمنى أن يحقق نفوذًا من خلال التربية مماثلًا لنفوذ جون ديوي، إلا أن ذلك لم يتحقق لفيلسوف كبير بحجم برتراند راسل باعترافه هو(١).

وأهم ما يميز المنهج البراجماتي ويعد جوهره هو ارتباط معنى الحقيقة بنتائجها المُرضية أو بنجاحها عمليًّا في حل المشكلات، فعرفوا الحقيقة بواسطة نتائجها العملية، فالحق عندهم هو ما ينجح، وهو المفيد النافع، فأصبحت الحقيقة وما يترتب عليها من نتائجَ هو مقياس الأفكار عند البراجماتيين، وبها يتحقق الغرضُ من الفعل، فالحقيقة عندهم هي إثباتٌ، والإثبات معياره النفع المحقق من صحة الفكرة والحدث.

ثم توسعت البراجماتية في تطبيق المنهج التجريبي ليشملَ جميعَ أمورِ الحياةِ، فأطلقوا ثورةً على العقائد الدينية، لما رأوا من ضرورة خضوعها للتجربة والنقد، والتمحيص، بل والانفصال عنها إذا لزم الأمرُ، فطبقت البراجماتية منهجَها التجريبيَّ على قضايا الميتافيزيقا، فكان تفسيُر "بيرس" للميتافيزيقا لا يخرج من تصوره للحقيقة، وعلى أساسها بنى مذهبه، فلكي يتيقن المرء من معنى تصور ذهني يجب عليه أن ينظر إلى النتائج العملية التي قد تنتج فيما يمكن أن يتصوره بالضرورة من صدق ذلك التصورِ، ويشكل مجموع هذه النتائج المعنى الكلي لتصورها، وقد لخص "بيرس" إرادة الاعتقاد في مقالة له عن تثبيت الاعتقاد، وهو أن خير الوسائل لتثبيت الاعتقاد يكون باتباع المنهج العلمي.

ثم ظهرت تجريبية "جيمس" المتطرفة، فجعل التجربة الدينية التي يمارسها الإنسان وما ينتج عنها من نفع مقياسًا لاختيار هذا الدين أيًّا كان نوعه، المهمّ ما ينتج عنه فائدة، فسوى بين المعتقدات الصحيحة والباطلة،

(١) ينظر: السابق ذاته، (٣/ ٤١١).

وجعل الحكم بصدقها مرهونًا بما يحققه الاعتقاد من نفعٍ، أما "جون ديوي" فقد حصر طرق المعرفة والميتافيزيقا في المنهج التجريبي، فلا مجال لمعرفتهما إلا بالعقل.

ومن خلال القراءة لهؤلاء الفلاسفة اخترت دراسة هذا الموضوع: "البراجماتية وموقفها من الميتافيزيقا".

منهج البحث:

استخدمتُ في هذا البحث المنهجَ التكامليَّ، وذلك لأن أفكار البراجماتية ليست بالأمر الهيِّنِ، فكان لزامًا أن أستخدم عددًا من المناهج العلمية لبحث الموضوع، منها: المنهج الوصفي، والتحليلي، والتاريخي الاستردادي، والمقارن، والنقدي.

مشكلة البحث:

١- ما هو تعريف البراجماتية؟، ومتى نشأت؟، ومَنْ هُم أشهر روادها؟.

٢- ما هو تفسير البراجماتية للحقيقة؟، وهل كان موضعَ اتفاق بين روادها؟.

٣- هل أثَّرَ تفسيرُ البراجماتيين للحقيقة على موقفهم من الميتافيزيقا؟.

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى معالجة المسائل الآتية:

١- التعريف بالبراجماتية، ونشأتها، وأشهر روادها، وتحديد إسهاماتهم في نموِّ البراجماتية.

٢- بيان التفسير البراجماتي للحقيقة، وتحديد موقف رواد البراجماتية "تشارليز بيرس"، و"وليم جيمس"، و"جون ديوي" من الحقيقة.

٣- إبراز موقف البراجماتية من الميتافيزيقا.

خطة البحث.

قمتُ بترتيب البحثِ في مقدمةٍ، وثلاثةِ مباحثَ، وخاتمةٍ.

أما المقدمةُ فتحدثت فيها عن أهمية الموضوع، ومنهج البحث، ومشكلته، وأهدافه، وخطته.

المبحث الأول: البراجماتية، تعريفها، ونشأتها، وأشهر روادها.

المبحث الثاني: التفسير البراجماتي للحقيقة.

المبحث الثالث: موقف البراجماتية من الميتافيزيقا.

الخاتمة وتشتمل على: أهم النتائج، والتوصيات.

هذا والله – تعالى– أعلى وأعلم وأعز وأجل وأحكم، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

***

المبحث الأول
البراجماتية
تعريفها، ونشأتها، وأشهر روادها.

تمهيد:

تعدُّ البراجماتية واحدةً من أهم المذاهب في الفلسفة المعاصرة، وهي أول مذهب فلسفي ينتسب إلى الولايات المتحدة الأمريكية، بعد أن كانت محلَّ استقبالٍ للفلسفات الأوروبية منذ هجرة الأوروبيين إليها، إبان القرن السابع عشر، وحتى انتهاء الحرب الأهلية في نوفمبر من عام ١٨٦٥م، فظلت الولايات المتحدة متأثرةً بما يحمله المهاجرون من تياراتٍ ومذاهبَ فلسفيةٍ، نتج عنه انتعاشٌ للفكرِ الفلسفيّ، حتى ظهرت البراجماتيةُ أو المذهبُ العمليُّ كأولِّ مذهبٍ وليدٍ في الأرض الجديدة، وبما حققته من دورٍ خطيرٍ في الفلسفة المعاصرة، وما كان له من أثرٍ في الفكر المعاصر، "فحظيت البراجماتيةُ باهتمامٍ كبيرٍ من جانب الفلاسفة، إذ وقفوا إزاء مبادئها وما يترتب عليها مواقف متباينة، وكثر الجدلُ حول أصالتها الفلسفية وقيمتها في تاريخ الفكر الإنساني، حتى شبَّه بعضُ المؤرِّخين المقامَ الذي كانت تشغله في الفلسفة حتى السنوات الأخيرة بالمقام الذي يشغله الطفل المزعج في البيت"(١).

لكن سرعان ما شبَّ المذهبُ البراجماتيُّ، وهيمن على جميع التيارات الفلسفية الوافدة من أوروبا إلى الولايات المتحدة الأمريكية، ولم

(١) "بوبكين، ريتشارد"، و "سترول، آفريوم"، جعل الفلسفة بسيطة، "دليل كامل لأهم المفكرين والنظريات في العالم"، طبعة نيويورك الولايات المتحدة الأمريكية، ٢٠١٤م، صـ(١٧٢).

يكن مصطلحُ البراجماتية Paragmatism يستخدم كثيرًا في اللغة الإنجليزية، كما لم يكن أيضًا مشهورًا في الدراسات الفلسفية، حتى قدمه الفيلسوف الأمريكي "تشارلز ساندرز بيرس" المؤسس الأول للبراجماتية، ولم يذكره قبله إلا الفيلسوف الألماني "إيمانويل كانط"، في كتابه "نقد العقل الخالص"، كي يعبر به عن علاقة تحديد الأهداف الإنسانية بعضها البعض(١).

وقد صرح "بيرس" أنه استخدم هذا المصطلح بتأثير كتاب "كانط"، الذي عكف على دراسته عدة سنوات، وأنه فضَّل مصطلح البراجماتية على مصطلح المذهب العملي Practicalism منذ أن أدرك أن مجال البحث العملي "Practical" هو مجال للفكر في العصر الحديث، لذلك فإنَّ البراجماتية بالنسبة لبيرس لا تتعلق بما هو عملي، ولا مع كل ما يتصل بالعمل أو الممارسة Practice، ولكنه يتصل بطريقة المعرفة (المعرفة العقلية)، وعلاقتها بالعمل (الفعل) أو السلوك الإنساني (الغرض العقلي)، هذا التمايز بين البراجماتية والنظرة العملية الذي أصر عليه بيرس، وأنه اتبع في ذلك خُطَى "كانط"(٢).

لم يلق مصطلح "البراجماتية" قبولًا من الرواد الأوائل للبراجماتية، فقد استخدموه بدرجةٍ أقلَّ في كتاباتِهِمْ في السنوات الأولى لنشأة البراجماتية، حتى إن "وليم جيمس" اعتقد أن هذا المصطلحَ سيءُ

(١) مهران، محمد (الدكتور)، مدخل إلى الفلسفة المعاصرة، ط دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٤م، صـ(٤٠)، برهيه، إيميل، تاريخ الفلسفة (الفلسفة الحديثة)، ترجمة جورج طرابيشي، طبعة دار الطليعة بيروت، لبنان، ط الأولى، ١٩٨٧م، صـ(٤٩).

(٢) ينظر: "بوبكين، ريتشارد"، و "سترول، آفريوم"، جعل الفلسفة بسيطة، مرجع سابق، صـ(١٧٣)، وينر أيضًا: الطويل، توفيق، (الدكتور)، أسس الفلسفة، طبعة مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط الثالثة، د.ت، صـ(٨٢).

الحفظِ، فكتب يقول: "عليَّ أن أعترف أن مصطلح البراجماتية بكل ما يقترحه من أفعال كان اختيارًا سيئًا، وقد تناوله النقاد كما لو كان استخدامه محصورًا بين الأكاديميين كالأطباء والمهندسين، ورجال الأعمال هم الذين يحتاجون إلى بعض أنواع الصيغ الجاهزة والأولية، لكنهم لا يملكون الوقت لدراسة الفلسفة الأصيلة، وعادة ما يوصفُ مصطلحُ البراجماتية بأنه حركةٌ أمريكيةٌ متميزةٌ، وهو نوعٌ من المشروع العقلي الفكري الناقص، فهو يناسب رجل الشارع، الذي يكره بطبيعة الحال النظرية، ويريد العائد الفوري مباشرة"(١).

لم يستحسن "بيرس" الطريقة التي طور فيها "وليم جيمس" نظرية المذهب البراجماتي، ففي عام ١٩٠٥م؛ قام بتغيير المصطلح من البراجماتية إلى البراجماطيقية Pragmaticiasm، وعلل "بيرس" سبب التغيير: "حتى يكون فيه –المصطلح– من القبح ما يصرف عنه اللصوص والخطافين"(٢).

فُسِّرت براجماتية "بيرس" حسب المصطلح الذي ارتضاه "براجماطيقية" بأنها نظرية في المعنى، ثم أخذ المصطلحُ مسارًا آخر عند "وليم جيمس" و"ديوي"، فأصبحت الحقيقة والصدق عندهما يفسران بما يعمل، فالعمل الناتج عن الحقيقة عند البراجماتيين هو بالتأكيد موضع اهتمام رئيس، ولا يرتكز هذا الاهتمام على حركة أو نشاط، أو بأية تأثيرات للأفكار على الحياة الإنسانية، لكنه موجه للعمل الذكي، العمل الهادف أو السلوك الذي يبحث عن هدف ما متأثرًا بالفكر(٣).

(١) جيمس، وليم، معنى الصدق، ط لونجمان، لندن، ١٩٠٤م، صـ(١٧٦).
(٢) بيرس، تشارلز، مجموعة الأبحاث، (٥/ ٨٥).
(٣) "بوبكين، ريتشارد"، و "سترول، آفريوم"، جعل الفلسفة بسيطة، "مرجع سابق، صـ(١٧٥).

أولًا تعريف البراجماتية:

البراجماتيـــة اســـم مشـــتق مـــن اللفـــظ اليونـــاني براجمـــا "Pragma"، وتعني "العمل"، ويفيد الأصل اللغوي للكلمة ما هو عملي، ومن هنا أطلق عليها اسم "الفلسفة العملية"(١)؛ لأنها تجعل من العمل مبدأً مطلقًا(٢).

وقد أطلقت البراجماتية Pragmatism على عددٍ من الفلسفات المختلفة التي تشترك في مبدأٍ عامٍ، وهو أنَّ صحةَ الفكرةِ تعتمد على ما تؤديه هذه الفكرةُ من نفعٍ، أيًّا كان نوعُ هذا النفع، أو على ما تؤدي إليه من نتائجَ عمليةٍ ناجحةٍ في الحياة.

وقد بين " بيرس" حقيقة البراجماتية في المقال الذي كتبه بعنوان: "كيف نجعل أفكارنا واضحة؟"، الذي نشره في عدد يناير ١٨٧٨م، في مجلة"Popular Since Monthly"": "إننا لكي ننشئ معنى فكرة، فكل ما نحتاج إليه فقط هو تحديد أي سلوك تصلح لإنتاجه: إن المسلك بالنسبة لنا هو مغزاها الوحيد الذي يعول عليه، وإن الحقيقة الملموسة البينة التي هي المنشأ الأصلي الجذري لكل تمايزاتنا بين الأفكار، مهما تكن خفية ومستورة، فلا توجد فكرة واحدة منها على سبيل الحصر تبلغ حدًّا من الدقة والرقة، بحيث لا تتألف من شيءٍ سوى تمايزٍ ممكنٍ في المزاولة العملية"(٣).

(١) وهبه، مراد، قصة الفلسفة، ط دار الثقافة الجديدة، القاهرة، ١٩٨٠م، صـ(١٠١).

(٢) الحنفي، عبد المنعم، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، ط مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٠م، صـ(١٥٠).

(٣) جيمس، وليم، البراجماتية، ترجمة الدكتور/ محمد العريان، مرجع سابق، صـ(٦٥).

وانتهى "بيرس" إلى تعريف البراجماتية بأنها: "محاولةُ تفسير كل فكرة بتتبع واقتفاء أثر نتائجها العملية كلٌّ على حدةٍ"(١).

ومن خلال هذا التعريف يتضح أن بيرس تأثر بكونه تجريبيًّا، وأنه اكتسب عادات المعمل العقلية، فرفض أن يسمى مذهبه "المذهب العملي" Practicalism كما اقترح عليه بعض أصدقائه، كما أنه تأثر بكونه منطقيًّا فاهتم بالتفكير الواقعي، واهتم بوجه أخص –فيما يتصل بالمنهج البراجماتي– بالفن الذي يجعل التصورات واضحة، أو بوضع تعاريفَ كاملةٍ ومثمرةٍ تتلاءم مع روح الطريقة العلمية(٢).

وقد أوضح "بيرس" معنى البراجماتية بقوله: "والآن فإن العنصر اللافت للنظر أكثر بالنسبة للنظرية الجديدة هو تعريفها للعلاقة المتصلة بين المعرفة العقلية والهدف العقلي، وبهذا الاعتبار فإنه يحدد أفضلية اسم البراجماتية"(٣).

ويصف "وليم جيمس" مزاج البراجماتي صاحب المذهب التجريبي بأن مزاجَهُ مزاجُ حاكمٍ مسلطٍ، في حين أن مزاج صاحب المذهب العقلي مزاج مستسلم بكلِّ إخلاصٍ، فالبراجماتية عنده تعني الهواء الطلق واستغلال إمكانات الطبيعة المتاحة ضد الوثوقية التعسفية، واليقينية الجازمة، والاصطناعية، وادعاء النهائية في الحقيقة بإغلاق باب البحث والاجتهاد استنادًا إلى مبدأ العلة الغائية، "إنها مجردُ طريقةٍ فحسب، مجردُ منهاجٍ فقط"(٤).

---

(١) السابق ذاته.

(٢) ينظر: الأهواني، أحمد فؤاد، جون ديوي، ط دار المعارف بالقاهرة، ط الثالثة، ١٩٨٧م، صـ(٨٤).

(٣) بيرس، تشارليز، مجموعة الأبحاث، مرجع سابق، (٥/ ٤١٢).

(٤) جيمس، وليم، البراجماتية، صـ(٧٢).

ومن غاياتِ البراجماتية البحثُ عن النفعية، مع أن البراجماتيين كثيرًا ما يرفضون هذا التفسير لفلسفتهم، ويضيقون ذرعًا بربط تفكيرهم بالمعيار النفعي الذي لا يعدونه بهذا المعنى أساسَ فلسفتِهِم ومحورَ أفكارِهِم(١).

وقد وصف "جون ديوي" البراجماتية بأنها فلسفةٌ مُعاكسةٌ للفلسفة القديمة التي تبدأ بالتصورات، وبقدر صدق هذه التصورات تكون النتائج، أما البراجماتية فهي تدعُ الواقع يفرض على البشر معنى الحقيقة، وليس هناك حقٌّ أو حقيقةٌ ابتدائيةٌ تفرض نفسها على الواقع(٢).

وعرفها "جون ديوي" في "قاموس القرن" "Century Dictionary" الذي قدمه عام ١٩٠٩م، بأنها: "النظرية التي ترى أن عمليات المعرفة ومواردها إنما تتحدد في حدود الاعتبارات العملية أو الغرضية، فليس هناك محلٌّ للقول بأن المعرفة تتحدد في حدود الاعتبارات النظرية التأملية الدقيقة، أو الاعتبارات الفكرية المجردة"(٣).

(١) ومن قبيل ذلك دفاع جون ديوي عن البراجماتية بقوله: "اتهامان خاطئان ينسبان إلى واضع= =البراجماتية، –يقصد بيرس–، الأول: أنها تجعل العمل غايةَ الحياة، والثاني: أنها تخضع الفكر والنشاط العقلي لغايات خاصة من المصالح والنفع. لكن ادعاءات "ديوي" منقوضة بما دونه في كتبهم، بل إن "ديوي" نفسه كان شديد الإعجاب بـ "جون استيوارت مل" أكبر فلاسفة النفعية التقليدية، وأهدى كتابه "البراجماتية" إلى ذكرى "مل" الذي أخذ عنه وضوح العقل البراجماتي لأول مرة، وتخيل أنه لو كان حيًّا إلى عهده لكان قائد الحركة العملية "البراجماتية". ينظر: الأهواني، أحمد فؤاد، جون ديوي، مرجع سابق، صـ(٨٥).

(٢) "بوبكين، ريتشارد"، و "سترول، آفريوم"، جعل الفلسفة بسيطة، مرجع سابق، صـ(١٧٥).

(٣) إن، بيك آر، دليل الفلسفة الاجتماعية، ط مكملان، نيويورك، ١٩٧٩م، صـ(١٢١).

والفلسفة "البراجماتية" هي: فلسفة تصوُّر العصر العلمي الذي نعيش فيه اليوم بصفة عامة، وتصوُّر الحياة العملية التي يعيشها الأمريكيون في مدينتهم الصناعية الحديثة بصفة خاصة(١).

وعرَّف قاموس ويبستر (Webster) البراجماتية بمعنيين:

الأول: أنها منهجٌ عمليٌّ يسعى إلى إيجاد حلٍّ للمشكلاتِ والقضايا بما يحقق التوازن بين المبادئ والاتجاه العملي.

الثاني: أنها تيار فلسفي أمريكي تأسس على يد "بيرس" (Charles Peirce) و"وليم جيمس"(William James)، قوامه أنَّ السبيلَ لفهم المفاهيم لا بدَّ أن يؤسَّس في ضوء مضامينها العملية، وأن وظيفةَ الفكر توجيهُ العمل، وأن الحقيقة في المقام الأول لا بد من اختبارها من جهة العواقب العملية للاعتقاد(٢).

وعرفها المعجمُ الفلسفيُّ بأنها : "مذهبٌ يرى أنَّ معيارَ صدق الآراء والأفكار إنما هو في قيمة عواقبها عملٌ، وأن المعرفة أداةٌ لخدمة

---

(١) موريس، تشارليز، رواد الفلسفة البراجماتية، صـ(٢٥).

(٢) مريام، وبيستر، قاموس وبيستر، حرف **(P)**، مادة (براجماتية)، Webester dictionary, P letter, pragmatic, نص الأصل الإنجليزي:

Definition of pragmatism:

1: a practical approach to problems and affairs, tried to strike a balance between principles and *pragmatism.*

2: an American movement in philosophy founded by C. S. Peirce and William James and marked by the doctrines that the meaning of conceptions is to be sought in their practical bearings, that the function of thought is to guide action, and that truth is preeminently to be tested by the practical consequences of belief.

مطالب الحياة، وأن صدق قضية ما هو كونها مفيدة، والبراجماتي بوجهٍ عام: وصفٌ لكل من يهدف إلى النجاح، أو إلى منفعة خاصة"[١].

وعرفها جميل صليبا بأنها: "مذهبٌ فلسفيٌّ يقرر أن العقل لا يبلغ غايته إلا إذا قاد صاحبه إلى العمل الناجع، فالفكرة الصحيحة هي الفكرة الناجحة، أي الفكرة التي تحققها التجربة، فكل ما يتحقق بالفعل هو حق، ولا يقاس صدق القضية إلا بنتائجها العملية"[٢].

وتبدو البراجماتية وكأنها نظرية في المعنى أيضًا، وهذا ما وضحه "وليم جيمس" في كتابه البراجماتية، عندما ضرب مثالًا لبيان أهدافها بمثال السنجاب[٣]، فالبراجماتية نظرية تتعلق بتحديد معاني الألفاظ

(١) المعجم الفلسفي، ط مجمع اللغة العربية، صـ(٣٢).

(٢) صليبا، جميل، المعجم الفلسفي، ط دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٩٨٢م، صـ(٢٠٣).

(٣) بدأ "وليم جيمس" المحاضرة الثانية في كتاب البراجماتية بقصة يقول إنها حدثت حينما كان مع نفر من رفاقه في نزهةٍ في الجبال، فقد عاد من جولة منفردة ليجد الجميع منغمسين في مجادلة ميتافيزيقية حامية الوطيس، وكان موضوع المجادلة سنجابًا حيًّا من المفروض أن يكون متعلقًا بأحد جوانب جذع شجرة، بينما يقف في الجانب المقابل للشجرة إنسانٌ تخيلوا أنه يبصر السنجاب بالدوران بسرعة حول الشجرة، ولكنه مهما أسرع في حركته فإنَّ السنجابَ يتحرك بنفس السرعة في الاتجاه المضاد، ويحتفظ دائمًا بالشجرة سدًّا منيعًا بينه وبين الرجل بحيث لم يستطع أبدًا أن يلمحه، فكانت المشكلة الميتافيزيقية هي: هل يدور الرجل حول السنجاب أم لا؟، إن الرجل يدور حول الشجرة ما في ذلك ريب، والسنجاب على الشجرة، ولكن هل يدور الرجل حول السنجاب؟، لقد انقسموا إلى فريقين متساويين، أصر كل فريق على رأيه بعناد، والتمس كل فريق من "جيمس" أن ينضم إليه ليرجح كفته، فقال لهم: إن صواب أي فريق يتوقف على "ما تقصدونه عمليًّا" بعبارة "الدوران حول السنجاب"، فإن كنتم تقصدون العبور من شماله إلى شرقه ثم إلى جنوبه ثم إلى غربه ثم إلى شماله ثانيًا، فمن الجليّ أنَّ الرجل يدور فعلًا حوله؛ لأنه يحتل هذه المواقع المتتابعة، ولكنْ إذا كنتم تقصدون أن الرجل يكون أولًا أمامه ثم يمينه ثم من خلفه ثم عن يساره، ثم أمامه مرة أخرى، فمن الجليّ أنَّ الرجلَ يخفق في الدوران حوله، إذ بالحركة التعويضية التي يتحركها السنجاب،=

والعبارات، ولكن بالرغم من كل هذه المعاني التي توحي بأن البراجماتية مذهبٌ فلسفيٌّ يعالج من بين ما يعالجه نظرية المعرفة ونظرية المعنى، فإن المدقق في هذه الحركة الفلسفية يلاحظ بحق أنها ليست في جوهرها مذهبًا فلسفيًّا بالمعنى الدقيق، بل هي أقرب إلى أن تكون طريقةً في التفكير تحاول أن تضع معيارًا للتمييز بين ما هو حق وما هو باطل في الأفكار والمعتقدات، "ولحسم المنازعات الميتافيزيقة" فهي –على حد تعبير "جيمس"– "محاولةُ تفسير كل فكرة بتتبع واقتفاء أثر نتائجها العملية كلٌّ على حدةٍ"(١).

ثانيًا: نشأة البراجماتية:

ظهرت البرجماتية في زمنٍ تسابقت فيه الاكتشافات العلمية، والتجارب المعملية، وأصبح تمجيدُ العقلِ أكبرَ سمةٍ للعصر الحديث، حتى أعلى كلمته فوق كل كلمة، وجعل منه الحكم الأول والأخير، حتى تَسمَّى به مجموعةٌ من الفلاسفة، وهم الذين أُطلق عليهم الفلاسفة العقليُّون، كـ "ديكارت"، و"مالبرانش"، و"سبينوزا"، و"ليبنتز"، وفي المقابل نجد تيارًا فلسفيًّا آخر هم من تسمُّوا بالفلاسفة الحسيين كـ "جون لوك"، و"باركلي"، و"ديفيد هيوم"، وأضرابهم، فهاجموا المعاني والمبادئ العقلية هجومًا عنيفًا،

= فإنه يظل محافظًا على بطنه من ناحية الرجل طوال الوقت، وعلى ظهره مدبرًا عنه، ثم اختتم "جيمس" مثاله بقوله: "ميزوا الفرق، ولن تجدوا مناسبة للمضي في الجدل بعد ذلك قيد أنملة"، "فكلا الفريقين مصيبان ومخطئان طبقًا لما يدركونه من الفعل "يدور حول"، بطريقة عملية أو بأخرى. ينظر: جيمس، وليم، البراجماتية، صـ(٦١، ٦٢)، وينظر أيضًا: بول دروا، روجيه، أساطين الفكر، عشرون فيلسوفًا صنعوا القرن العشرين، ترجمة الدكتور/ علي نجيب إبراهيم، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ٢٠١٢م، صـ(٤٣، ٤٤).

(١) جديدي، محمد (الدكتور)، فلسفة الخبرة، جون ديوي نموذجًا، طبعة المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، تونس، د.ت، صـ(٤٢).

فظن "كانط" أنه ينقذها إذا اعتبرها مجرد صيغ جوفاء لتنظيم التجربة، وجاء مذهب التطور الذي نادى بأنَّ الحسَّ والعقلَ وظيفتان من وظائف الحياة، وأن المعرفة آلةٌ للعمل، وأن رأي" كانط" يلائمهم تمام الملاءمة(١).

وقد أدى هذا الجمع بين نقد" كانط" ونظرية التطور إلى طائفة من المذاهب "الحيوية" أو "العملية" التي غلبت فكرة الحياة على فكرة العلم، فافترقت عن فلسفات" كانط" و"هربرت سبنسر" جميعًا، وكان من سمات هذه المذاهب العملية أنَّها لا تعمل على تبرير العلم والميتافيزيقا تبريرًا نظريًّا(٢)، ولا تغار على مبادئ العلم غيرة "كانط"، ولكنها تستمسك مثله بالمعاني الميتافيزيقية، وترمي مثله العقل العملي إلى تحقيقها بالفعل، وإقامة الإيمان بها على نتائجها العملية؛ فهي تمثل –العقل العملي– محولًا إلى قوة فاعلية، وهذا أظهر ما نشأ عليه الفكر البراجماتي(٣).

وكانت بداية الانطلاق للبراجماتية من النادي الذي أسسه "تشارلز ساندرز بيرس" في يناير من عام ١٨٧٢م بمدينة "كامبريدج"، بولاية "ماساتشوستس الأمريكية"، وأطلق عليه "النادي الميتافيزيقي" ليجتمع فيه مع الشباب لنشر أفكاره عن المذهب الفلسفي الجديد، ومن الأعضاء المشاركين في هذا النادي: "جوزيف فانر"، و"هولمز ورايت وأبوت"، و"جون فسك"، وكانت لهم اختصاصات مختلفة واهتمامات مشتركة، حيث يقول "بيرس": إن "وليم جيمس"، و"رايت" كانوا ممن يهتمون

(١) رايت، وليم باركلي، تاريخ الفلسفة الحديثة، صـ(٢٤٥).

(٢) وهبه، مراد، قصة الفلسفة، ط دار الثقافة الجديدة، القاهرة، ١٩٨٠م، صـ(١٠١)، غلاب، محمد (الدكتور)، المذاهب الفلسفية العظمى في العصور الحديثة، طبعة دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط الأولى، ١٩٨٤م، صـ(٤١).

(٣) ينظر: كرم، يوسف (الدكتور)، تاريخ الفلسفة الحديثة، القاهرة، صـ(٤١٥).

بالعلم، ويتفحصون أقوال الميتافيزيقا[١]، ومن خلال مناقشات هؤلاء الأعضاء تبلورت فكرة البراجماتية عند "بيرس"، والتي عبر عنها أفضل تعبير في مقاله الذي حمل عنوان: "كيف نجعل أفكارنا واضحة" How to make ourideas clear ؟، والذي نشر عام ١٨٧٨م[٢].

لكن لم يتم هذا النادي عامه الأول حتى حُلَّ في ديسمبر من نفس العام، ثم أعاد "بيرس" إقامة نادٍ جديدٍ يحمل نفس الاسم "النادي الميتافيزيقي" عند وصوله إلى جامعة "جونز هوبكنز" في عام ١٨٧٩م[٣]، إلا أن البراجماتية في تلك الفترة بقيت في كتابات "بيرس"، حيث أصلها كمنهج فلسفي، تلك الكتابات التي لم تكن معروفة على نطاق واسع حتى عام ١٨٩٨م، حيث نشر "وليم جيمس" مقاله: "التصورات الفلسفية والنتائج العملية" الذي أكد فيه على أفكار "بيرس" وطورها[٤].

لم يكن الاسم الذي أطلقه "بيرس" على النادي بـ"النادي الميتافيزيقي" من باب المصادفة، بل إنه عمد إلى ذلك لأن جُلَّ الأفكار التي تندرج تحتها البراجماتية تدور حول نصرة العلم التجريبي، ورفض ما هو ميتافيزيقي، طالما أنها لم تخضع للتجربة والحس، لذا يقول "بيرس" معرِّضًا باللاهوت: "إن الفكر في عصرنا هذا العلمي العملي لم يعد بحاجة إلى السكون والظلام اللذين كان يستعان بهما فيما مضى، بل أصبحت حياته مرتبطة بتجارب المعامل التي تقام في وضح النهار"[٥].

(١) ميناند، لويس، النادي الميتافيزيقي، ط نيويورك، ٢٠٠١م، صـ(٢٢٦).
(٢) رايت، وليم باركلي، تاريخ الفلسفة الحديثة، صـ(٢٤٧).
(٣) ميناند، لويس، النادي الميتافيزيقي، ط نيويورك، ٢٠٠١م، صـ(٢٢٦).
(٤) موريس، تشارليز، رواد الفلسفة البراجماتية، صـ(٤٠).
(٥) بيرس، تشارلز ، مجموعة الأبحاث، ١٩٠٢م، (٥/ ٤٢٠).

وأصبحت الفلسفة العلمية العملية التي أطلق عليها "بيرس" البراجماتية طابعًا يميز التفكير الأمريكي، حتى ارتبط هذا التفكير على أقلام الكتَّاب وألسنة المتحدثين في أرجاء العالم ارتباطًا يجعل الواحد منهما دالًّا على الآخر، فإذا قيل فكر أمريكي وثب إلى الأذهان صفته البراجماتية، وإن قيل "فلسفة براجماتية" ورد إلى الذهن الفكر الأمريكي ورودًا مباشرًا، فجاءت البراجماتية لتصور وجهة الثقافة والفكر في تلك البلاد، ونشأ فلاسفتهم من ميادين العمل، فأصبحت انعكاسًا للتفكير النظري(١).

ثم بدأت البراجماتية منذ ذلك الحين تنتشر بوصفها مذهبًا فلسفيًّا انتشارًا سريعًا، فغادرت الأرض التي نشأت بها –أمريكا– إلى أوروبا، فتأثر بها كثيرٌ من الفلاسفة والمفكرين في تخصصاتٍ مختلفةٍ مثل: "شيلر" في مجال الإنسانيات، و"جورج هربرت ميد" في النواحي الاجتماعية، و"لويس" و"رامزي" في مجال الدراسات المنطقية، وتبناها في إيطاليا كلٌّ من "جيوفاني بابيني"، و"جيوفاني فايلاتي"(٢).

ولم تكن البراجماتية في نشأتها منقطعةَ الصلةِ بالماضي، فاسمها مشتقٌّ من الكلمة الإغريقية براجما –كما مر–، وعبر "وليم جيمس" عن حقيقة البراجماتية بأنها "اسمٌ جديدٌ لطريقةٍ قديمةٍ في التفكير"(٣)، ويعني من هذا أن البراجماتية تأثرت بالفلسفة الإنجليزية التي كانت وثيقة

(١) جديدي، محمد (الدكتور)، فلسفة الخبرة، جون ديوي نموذجًا، صـ(٤٢)٠

(٢) موريس، تشارليز، رواد الفلسفة البراجماتية، صـ(٧٨).

(٣) جيمس، وليم ، البراجماتية، صـ(٥٢)، وينظر أيضًا: جيمس، وليم، البراجماتية اسم جديد لبعض الطرق القديمة في التفكير، ط لونجمان، نيويورك، ١٩٤٩م، صـ(٤٢).

James, William. Progmatism: Anew Name for Some Old Ways of Thiking, P.42, Longman,Green and Co. New York,1949.

الصلة بالاتجاهات الفكرية في الولايات المتحدة، حتى ظلت هذه الاتجاهات صدًى لها قبل أن تتمخض عن لونٍ أمريكيٍّ جديدٍ، فكانت الوجهةُ السائدةُ عند الفلاسفة الإنجليز، كـ "بيكون"، و"جون لوك"، و"باركلي"، و"ديفيد هيوم"، و"جون ستيوارت مل"، الاعتمادَ على الخبرةِ الحسية –التجربة–[١]، كما تأتي بها الحواس مما تشاهده وتتأثر به، ومن هنا يأتي الفارق بين الفلسفتين، فالفلسفة الإنجليزية عندما حللت المعرفة الإنسانية شغلت نفسها بردها إلى أصولها وبالنظر إلى كيفية اتصالها بتلك الأصول، إذا ما عمد إلى تحليل الأشياء الخارجية وما يطبع على الحواس من آثار، وبين المعارف التي تنتج عن ذلك، لكن البراجماتي يربط المعارف بعالم التجربة، لا من حيث النشأة بل من حيث النتائج، فلا يسأل عن كيف نشأت وكيف جاءت؟، لكنه يتساءل ما النتائج التي تترتب على تلك النتائج في عالم الواقع[٢].

كما أن البراجماتيين قد وسعوا دائرة البحث، فجعلوا النظر إلى النتائج مبدأً شاملًا لميادين الفكرِ جميعًا، وخالفت في ذلك التجريبية الإنجليزية التي اتجهت نحو النتائج في مجالَيْن من مجالات التفكير هما: العلوم والأخلاق، ومن ثم كان طابع البراجماتية اسمًا جديدًا لفلسفةٍ قديمةٍ، وذلك لأن الطريقة كانت متبعةً – ولا تزال– في ميدان العلوم والحياة اليومية، ثم أمسك الفلاسفةُ عن تطبيقها في مجال تفكيرهم النظري، فالطريقةُ القديمةُ قائمةٌ، أما الجديدُ فهو تعميمها على كلِّ ضروب الفكر[٣].

(١) رايت، وليم باركلي، تاريخ الفلسفة الحديثة، صـ(٢٤٥).

(٢) الأهواني، أحمد فؤاد (الدكتور)، جون ديوي،، سلسلة نوابغ الفكر، طبعة دار المعارف القاهرة، ط الثالثة، ١٩٨٧م، صـ(١٢).

(٣) رايت، وليم باركلي، تاريخ الفلسفة الحديثة، صـ(٢٤٩).

ولقد أفصح "وليم جيمس" عن حقيقة البراجماتي بأنه الشخص الذي ولى ظهره بكل عزمٍ وتصميمٍ –وإلى غير رجعة– لعددٍ كبيرٍ من العادات الراسخة المتأصلة العزيزة على الفلاسفة المحترفين، فهو ينأى بعيدًا عن التجريد، وعن عدم الكفاية، ويعرض عن الحلول الكلامية وعن التعليلات القبلية السابقة على التجربة(١)، وعن المبادئ الثابتة، وعن ضروب المطلق والأصول المزعومة، وهو يولي وجهه شطر الاستنادية والمحسوسية والكفاية، شطر الحقائق والوقائع، شطر العمل والأداء والمزاولة، وشطر القوة(٢).

وأهم ما يميز المنهج البراجماتي ويعد جوهر هذه الفلسفة هو ارتباط صحة الفكرة بنتائجها المرضية، أو بنجاحها عمليًّا في حل المشكلات، ولكن على الرغم من اتفاق الفلاسفة البراجماتيين على هذا المبدأ العام، فهم على خلاف فيما بينهم حول النتائج العملية التي تعد مرضية، وتكون معيارًا للصدق أو الحقيقة(٣).

لقد أصبحت البراجماتية منذ نشأتها مَعْنِيَّةً بصواب الأحكام التي نُجْريها على الأشياء حولنا، فهي تقومُ على الشقّ الثاني من نظرية المعرفة، وهو هل أحكامنا على الأشياء صائبة؟، ثم كيف نتحقق من صوابها؟، ففي كل دقيقةٍ أو لحظةٍ من لحظاتِ الحياة، وفي كلّ حركةٍ من حركاتِ الإنسان أو همسةٍ من همساتِهِ أو خالجةٍ من خوالِجِه، لا يمكن الإنسان نفسه أن يحكم على الأشياء والحوادث ثم يتصرف في حياته على الزعم أن أحكامه في هذه الأشياء والحوادث صائبة، فهل

(١) كوبلستون، فريديريك، تاريخ الفلسفة، (٨/ ٤٣٧).
(٢) جيس، وليم، البراجماتية، صـ(٧١).
(٣) الأهواني، أحمد فؤاد (الدكتور)، جون ديوي،، صـ(١٥).

هذه الأحكام صائبة حقًّا، وكيف نتحقق من صوابها، أو ما الدليل القاطع على أنها صائبة؟[١].

وتهدف البراجماتية إلى أنه لا يوجد في العقل معرفةٌ أوليةٌ تستنبط منها نتائج صحيحة بصرف النظر عن جانبها التطبيقي[٢]، فالأمر كلُّه مرهونٌ بنتائجِ التجربة العملية، لاعتقادهم أنها تقطع مظانَّ الاشتباه، وتضيق فرص التوهم أو الظن، ويقرر البراجماتيون أن الحقائق العملية تتغير بتغير العصور، فالصادق في الحاضر قد يصبح غير صادق في المستقبل، وينتج من هذا أن صدق القضايا يتغير بتغير العلم، وأن الأمور بنتائجها، والحق عندهم نسبيٌّ، لأنه منسوبٌ إلى زمانٍ معينٍ، ومكانٍ معينٍ، ومرحلةٍ معينةٍ من مراحل العلم، ولا يهم البراجماتيّين أن يقودهم العقلُ إلى معرفة الأشياء، إنما المهم أن يقودهم إلى التأثير الناجح فيها[٣].

وقد بين "وليم جيمس" أن البراجماتية لا تبدو حلًّا بقدر ما تبدو برنامجًا أو منهاجًا للمزيدِ من العمل[٤]، وبصفةٍ خاصةٍ بقدر ما تبدو كعلامةٍ أو إشارةٍ للطرق التي يمكن بها تغيير الحقائق أو الوقائع الراهنة، وعند اتباع البراجماتية تصبح النظريات أدواتٍ ووسائلَ، لا حلولًا لألغازٍ ولا إجاباتٍ عن أحجية، ومن ثم يقرر: " أن البراجماتية تفك جمودَ كلِّ نظرياتنا وتُليّنُها وتحل يبسها إلى طراوةٍ وغضاضةٍ، وتمرس كل واحدة

(١) فام، يعقوب، البراجماتية أو مذهب الذرائع، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة، ١٩٩٨م، صـ (١٣٣).

(٢) كوبلستون، فريديريك، تاريخ الفلسفة، (٨/ ٤٥٣).

(٣) صليبا، جميل، المعجم الفلسفي، (١/ ٢٠٤).

(٤) موريس، تشارليز، رواد الفلسفة البراجماتية، صـ(٦٨).

منها على العمل، ولكونها ليست شيئًا جديدًا جوهريًّا، فهي تتناغم مع كثيرٍ من الاتجاهات الفلسفية القديمة"[١].

ثم تأتي البراجماتية وتوجه كلَّ جُهودِها إلى حلِّ الإشكال الناتج عن كيفية التحقق من الحواس، وذلك لأنه لن يمكن التحقق من صحة المعلومات التي تأتينا عن طريق الحواس، لأنها كثيرًا ما تكون خادعة أو مخدوعة، فكثيرًا ما تخلط الحقائق بالأوهام والخيالات، فنضل الطريق ولا نعود نستطيع أن نميز بين الحقيقة والوهم، ثم يذكر أيضًا أن المعارف والمعلومات العقلية التي تنبني على فروض ومقدمات منطقية كثيرًا ما تكون خاطئةً بعيدةً عن الصواب، لا تنطبق على الحقائق الموضوعية المستقلة، فالحواس هي الوسيلة الوحيدة عندنا للاتصال بالأشياء المادية التي تحيط بنا[٢].

ثم انطلقت بعد كشف البعد الفيزيقي للمواد للبحث في مسائل الميتافيزيقا، فتناولت البحث عن الخير والجمال، والمعرفة والوجود ، وتذرعت في البحث في مسائل الميتافيزيقا بحجة البحث عن حلٍّ لإشكال حقيقة المعارف والمعلومات التي تصل إلينا، ومن ثم أصبحت البراجماتية تعنى بهذا الموضوع أكثر مما تعنى بأي شيء آخر[٣]، فكلامها على نظرية المعرفة منصبٌّ في الواقع على صدق هذه المعارف[٤].

لذا استطاعت البراجماتية أن تفرض نفسها في فترةٍ وجيزةٍ على التيارات الفلسفية الأخرى، وتقلص من هيمنتها على فكر الأرض الجديدة، فإنها تتماشى مع كثيرٍ من الفلسفات، فهي تتفق مع مذهب الاسمية في

(١) ينظر: جيمس، وليم، البراجماتية، صـ(٧٤).
(٢) فام، يعقوب، البراجماتية، صـ(١٣٣).
(٣) كوبلستون، فريديريك، تاريخ الفلسفة، (٨/ ٤٣٧).
(٤) رايت، وليم باركلي، تاريخ الفلسفة الحديثة، صـ(٢٤٨).

كونها تلجأ دائمًا للاصطفائية في التفاصيل الجزئية، وتتفق مع مذهب النفعية في توكيدها للنواحي العملية، وتتفق مع الفلسفة الوضعية في ازدرائها للحلول الكلامية والأسئلة عديمة الجدوى، والتجريدات الميتافيزيقية، ورغم أنَّ كلَّ هذه الاتجاهات تعاند المذهبَ العقليَّ، بل إنَّها ضدُّه كدعوى وطريقة، يقرر جيمس "أن البراجماتية مسلحة تسليحًا كاملًا وجهادية، وأنها لا تظاهر أو تناصر أو تمثل أية نتائج معينة بذاتها، وليس لها أية عقائد يقينية أو جزمية أو أية مذاهب أو مبادئ، اللهم سوى طريقتها ومنهاجها"(١).

كما التقت البراجماتية بأصول الوضعية، فاصطبغت بصبغتها، حتى صارت كأنها امتداد لها، فالوضعية: هي اتجاه فكري يقنع بما هو كائن ويفسره ويرفض ما ينبغي أن يكون(٢)، ثم أخذت الوضعية شكلًا جديدًا في الولايات المتحدة الأمريكية اسمه "البراجماتية"، هذا الشكل يحدده الدكتور توفيق الطويل بقوله: "إذا كانت الوضعية قد رفضت التسليم بالحقائق المطلقة والقضايا الميتافيزيقية، فإن الفلسفة العملية لا تتردد في قبولها واعتبارها صادقة متى كانت مفضية إلى نفع يتحقق في حياة الإنسان"(٣).

لقد وضع البراجماتيون أصولًا لفلسفتهم، فهي لا تظاهر أو تناصر أو تمثل أية نتائج معينة بذاتها، وليس لها أية عقائد يقينية جازمة أو أي مذاهب أو مبادئ، اللهم سوى طريقتها ومنهاجها، وخير مثالٍ لعلاقة البراجماتية بالنظريات الفلسفية الأخرى، ما ذكره "وليم جيمس" عن أحد شباب البراجماتية الإيطاليين "بابيني" أن البراجماتية تكمن وسط نظرياتنا

(١) جيس، وليم، البراجماتية، صـ(٧٥).

(٢) الشنيطي، محمود فتحي، وليم جيمس، صـ(٩٣).

(٣) الطويل، توفيق (الدكتور)، الفلسفة الخلقية نشأتها وتطورها، ط دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٧م، صـ(٢٧١).

مثل الرواق أو الدهليز في فندق، فهو يفضي إلى عددٍ لا حصر له من الغرف، ويفتح عليها، ففي أحدها قد تجد رجلًا يكتب سفرًا عن علم الجمال، وفي الغرفة المجاورة قد تجد شخصًا ساجدًا يدعو الله أن يهبه الإيمان والقوة، وفي الثالثة تجد كيمائيًّا يبحث في خصائص أحد الأجسام، وفي غرفة رابعة تجد نظامًا من الميتافيزيقيات المثالية في طور المخاض والابتداع، وفي غرفة خامسة تجد من يثبت استحالة الميتافيزيقا، ولكن الرواق أو الممر أو الدهليز ملكهم جميعًا، ومن المحتم على كلٍّ منهم أن يجوس خلاله إذا أراد طريقًا عمليًّا للدخول إلى غرفته أو الخروج منها، كل على حدة(١).

لذا أصبحت البراجماتية طريقةً لبحث القضايا الفلسفية التي تناولتها النظريات التاريخية المشهورة قبل أن تكون نظريةً فلسفيةً، أو بمعنًى آخر أن البراجماتية هي وسيلة لمعالجة القضايا الفلسفية قبل أن تكون هي نفسها قضيةً، أو حلًّا لبعض المشاكل الفلسفية، فليست أهميتها في الواقع في الحقائق الميتافيزيقية التي تتوصل إليها –وإن كانت هذه الحقائق في ذاتها مهمةً– ولكنها أيضًا في الطريقة التي تعالج بها حقائق الكون في المنهج الذي تنتهجه عندما تعالج هذه الحقائق، فكأننا في الواقع أمام رأي في الوجود وفي المعرفة أولًا، ثم أمام طريقة نستطيع أن نسلكها في البحث في هذه القضايا الكبرى(٢).

(١) جيمس، وليم، البراجماتية، صـ(٧٥).

(٢) فام، يعقوب، البراجماتية، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة، ١٩٩٨م، صـ (١٣٤).

أقسام البراجماتية:

انقسمت البراجماتية إلى عدة أقسام، بناءً على تطور الفكر البراجماتي عند مؤسسيه، وهذا التقسيم هو الذي ارتضاه البرجماتيون أنفسهم، وهو على النحو التالي:

١- براجماتية "بيرس"، وتتلخص فلسفته في أن فكرتنا عن أي شيء إنما هي عبارة عن الفكرة التي نكونها عن الآثار المترتبة على ذلك الشيء(١)، فليست معتقداتنا قواعد للعمل والسلوك، وليس التفكير بأكمله سوى مرحلة أولى في سبيل تكوين عادات فعلية، وتبعًا لذلك فإننا إذا أردنا أن نكفل لأية فكرة من أفكارنا أكبر قسط ممكن من الوضوح فليس علينا –فيما يرى "بيرس"– سوى أن ننظر إلى الآثار العملية التي نتصور تولدها عن تلك الفكرة، والإحساسات المباشرة وغير المباشرة التي نتوقع حدوثها نتيجة لها، وبهذا المعنى لا يكون تصورنا لأي موضوع من الموضوعات سوى مجرد تصور للنتائج العملية التي يمكن أن تترتب على هذا الموضوع(٢).

٢- براجماتية "جيمس" وقد أطلق عليها "التجريبية المتطرفة"، فكل ما تقوم عليه التجربة يعد حقيقيًّا واقعيًّا، وكل ما هو واقعيٌّ تقوم عليه التجربة(٣)، والوعي عند "جيمس" تيارٌ مستمرٌّ تجري تجزئته إلى موضوعاتٍ وعلاقاتٍ بين الموضوعات(٤)، وذلك بفعل تصرف وتدخل

---

(١) موريس، تشارليز، رواد الفلسفة البراجماتية، صـ(٣٢).

(٢) بيرس، تشارلز ساندرز، كيف نجعل أفكارنا واضحة؟، ضمن مجموعة الأبحاث، ط لونجمان، ١٩٠٢م، (٧/ ٢٦٨).

(٣) الشنيطي، محمود فتحي، وليم جيمس، ط دار الحمامي للطباعة، مصر، ١٩٥٧م، صـ(٩٢).

(٤) جود، سي، آي، مدخل إلى الفلسفة المعاصرة، ترجمة: محمد شفيق، ط مؤسسة نوفل، بيروت، لبنان، ١٩٨١،١م، صـ(٨٩).

العقل، وهذه التجربة لا تجري بشكل اعتيادي، وإنما تمليها مصالحنا وغاياتنا وربما مزاج المدرك كذلك[١].

٣- النوع الثالث من البراجماتية هو براجماتية "جون ديوي"[٢] وقد أطلق عليها "الأداتية" Instrumentalism، أو مذهب الذرائع، وتعني: أن النظرية آلة وأداة للتأثير في التجربة وتبديلها، وأن المعرفة النظرية وسيلةٌ لزيادة قيمة التجارب السابقة من حيث دلالتها المباشرة، فالنظرية الآلية تحسب "أن العقلَ آلةٌ يستخدمها الإنسانُ للمحافظة على الحياة أولًا وفي تنميتها ثانيًا"، ويعبر عنها "ديوي" بأن الأداتية "هي محاولةٌ لتكوين نظرية منطقية دقيقة للمدركات العقلية والأحكام والاستنباطات في شتى صورها، وذلك عن طريق البحث أولًا في الكيفية التي يؤدي بها الفكر وظيفته في التحديد التجريبي للنتائج المستقبلة"[٣].

وأهم ما يميز براجماتية "جون ديوي" أنها الاتجاه الإلحادي السافر للبراجماتية، فهو يؤمن بأن الكون موجود بذاته، وأن الإنسان جزء من الطبيعة وجد عن طريق التطور، وأن الدين اختراع من الإنسان[٤].

(١) الشنيطي، محمود فتحي، وليم جيمس، صـ(٩٣).

(٢) موريس، تشارليز، رواد الفلسفة البراجماتية، صـ(٧٥).

(٣) ديوي، جون، نمو البراجماتية، مقال من كتاب فلسفة القرن العشرين، تأليف رونز واجبورت، ترجمة: عثمان نوية، ط دار الكتاب العربي، القاهرة، صـ(٢٤٣-٢٤٤).

(٤) ينظر: الأهواني، أحمد فؤاد، جون ديوي صـ(١٣٩- ١٧٦).

٤- النوع الرابع من البراجماتية أسسه "هانز فايهنجر"[١]، في ألمانيا، مما يعطي دلالة على عبور الفكر البراجماتي من أمريكا إلى أوروبا؛ ليمثل نوعًا متطرفًا من البراجماتية، وقد سمي "فلسفة الوهم"، والتي خصص لها موضوع بحثه في الدكتوراه، ويرى "فايهنجر" "في تصوير فلسفة الوهم والتي تمثل الاتجاه المتطرف للبراجماتية: "أن المبادئ الرئيسة في العلوم الطبيعية والرياضيات والفلسفة والأخلاق والدين والقانون مجرد أوهام، وبالرغم من أن الحقائق الموضوعية تنقصها إلا إنها مفيدة للعمل"[٢]، ويلاحظ أن براجماتية فايهنجر لم تلق في صورتها المتطرفة نجاحًا في ألمانيا، ولم تلق قبولًا أو رواجًا في عند الألمان؛ لوجود تيارات فلسفية راسخة، مثل فلسفة ديكارت وهيجل وكانط، وهم أساطين الفلسفة الذين أثروا في مسار الفلسفة في العصر الحديث؟! مما صعب قبول الفكر البرجماتي في ألمانيا.

٥- أما النوع الخامس فهو براجماتية "شيلر"[٣] وقد تسمت البراجماتية في تلك المرحلة بـ "الإنسانية" أو "المذهب الإنساني""Humanism" ،وقد ظهر هذا المذهب في إنجلترا في مدة تقرب لظهور البراجماتية في أمريكا، ويتلخص في إدراك الإنسان أن المشكلة الفلسفية تخص

(١) فيلسوف ألماني، ولد سنة ١٨٥٢م، درس الفلسفة في جامعة توبنجن، وتخرج منها سنة ١٨٧٤م، ونشر أول كتاب له سنة ١٨٧٩م وكان عن نقد فلاسفة القرن التاسع عشر، ثم حصل على الدكتوراه من جامعة شتراسبورج الألمانية سنة ١٨٨٧م، وكان موضوع بحثه: "فلسفة الوهم"، وقد ضمنها في الجزء الأول من كتابه كانط وفلسفة كأن، وحصل على كرسي الفلسفة في جامعة هالله الألمانية، وكان مولعًا بالمثالية الوضعية، توفي سنة ١٩٣٣م في مدينة هالله بألمانيا. ينظر في ترجمته مقدمة كتابه كانط وفلسفة كأن، صـ(٩ – ٢٢)، وفي تأثره بالبراجماتية ينظر: فام، يعقوب، البراجماتية، صـ(١٣٤).

(٢) حنفي، حسن، مقدمة في علم الاستغراب، ط الدار الفنية، مصر، ١٩٩١م، صـ(٤٤٣).

(٣) فردناند سكوت شيلر، (١٨٦٤– ١٩٣٧م) كان فيلسوفًا إنجليزيًّا، عمل أستاذًا للفلسفة في جامعة كاليفورنيا الجنوبية، الولايات المتحدة الأمريكية.

كائنات بشرية، تبذل غاية جهدها لتفهم عالم التجربة الإنسانية، وزادها في ذلك أدوات الفكر البشري وملكاته[١]. وفلسفة "شيلر" هي فلسفة إنسانية، والإنسان هو موضوعها، فهي تتسعى لإيجاد حل لمشكلات الإنسان، ومعالجة قضاياه، وقد تأثر "وليم جيمس" بهذا النوع من البراجماتية، وظهر في بعض كتاباته وخاصة الأخلاق والدين[٢].

٦- وقد امتدت البراجماتية أيضًا إلى بريطانيا مثلما انتقلت أفكارها إلى ألمانيا وإيطاليا، حيث مثلها في بريطانيا الفيلسوف "بابيني".

٧- كذلك ظهر للبراجماتية اتجاه في فرنسا على يد "برجسون[٣]" صاحب الفلسفة الروحية، ومنبعا الأخلاق والدين، وكان معجبًا بأفكار وفلسفة "وليم جيمس"، ودليل ذلك أنهما كانا يتبادلان رسائل الإطراء والإعجاب الفكري، وأن "برجسون" كان موافقًا لأغلب آراء "جيمس"، مع وجود بعض نقاط الاختلاف الفكري بينهما -وهذه طبيعة الفكر الفلسفي الحر-، وقد صرح "وليم جيمس" باقتناعه التام واتفاقه مع أفكار "برجسون" وتحوله إلى البرجسونية[٤]، فكلا الفيلسوفين قد أوليا

(١) أمين، عثمان، شيلر، سلسلة نوابغ الفكر الغربي، ط دار المعارف مصر، صـ(١٣١).

(٢) مهران، محمد (الدكتور)، مدخل إلى الفلسفة المعاصرة، ط دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٤م، صـ(٤٤).

(٣) هنري برجسون، "**Henri Bergson**" (١٨٥٩- ١٩٤١م)، فيلسوف فرنسي، حصل على جائزة نوبل في الآداب سنة ١٩٢٧م، ويعتبر برجسون من أهم الفلاسفة في العصر الحديث، فكان نفوذه واسعًا وعميقًا بما تركه من مصنفات وآراء فلسفية في منتصف القرن الماضي، وكتاباته عن القيم كانت حائط صد ضد هجمات المذهب المادي، من مؤلفاته: محاولة في الوقائع المباشرة للوجدان، والمادة والذاكرة، التطور الخلاق، والفكر والمتحرك الضّحك، الطّاقة الرّوحيّة، والمدة والتزامن: برجسون وكون آينشتاين. ينظر في ترجمته: كرم، يوسف (الدكتور)، صـ(٤٣٨).

(٤) صليبا، جميل، المعجم الفلسفي، (١/ ٢٠٤).

اهتمامًا للتطور البيولوجي ولكن بفرق، فـ"برجسون" كان منشغلًا ومهتمًّا بالبيولوجية أكثر من "جيمس"(١).

ويقترب "برجسون" من أفكار البراجماتية عندما عدَّ وظيفة العقل أنها تكمن في القدرة على صنع الأدوات، ففعل العقل وتأثيره وما يؤدي إليه بوصفه أداة في خدمة أغراض الإنسان هو ما يهم البراجماتية(٢)، فالرؤية البيولوجية للبراجماتية، وهي ترتبط بـ "جون ديوي"، وترى أن الفكر إنما يهدف لمساعدة الكائن العضوي ليتوافق مع بيئته، فالتأقلم الناجح المؤدي إلى البقاء والنمو هو بمثابة المعيار على صدق الأفكار، وتفرع من البراجماتية التجريبية البراجماتية الاسمية، وهي صورة فرعية من البراجماتية التجريبية، وترى أن نتائج الأفكار هي ما نتوقعه في صورة وقائع جزئية مدركة في الخبرات التي تحدث في المستقبل، وعلى سبيل المثال فإن معنى الطبيعة الإنسانية والأقوال الصحيحة التي تقال عن هذه الطبيعة لكل هذا ليس عن جوهر معين لإنسان، بل بالأحرى عن الأفعال الجزئية لأفراد الناس الجزئية، وقد كان "بيرس" و"جيمس" في بعض كتاباتهما يأخذون الموقف التجريبي وفي بعض الأحيان يأخذون الموقف الاسمي(٣).

(١) بيري، رالف بارتون، آراء وشخصية وليم جيمس، ترجمة: محمد علي العريان، ط دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٥، صـ(٤٦٦).

(٢) صليبا، جميل، المعجم الفلسفي، (١/ ٢٠٤).

(٣) مهران، محمد، مدخل إلى الفلسفة المعاصرة، صـ(٤٤).

ثالثًا: أشهر رواد المذهب البراجماتي:

١- تشارلز ساندرز بيرس "Charles Sanders Peirce" (١٨٣٩– ١٩١٤م).

المؤسس الأول للبراجماتية[١]، ولد الفيلسوف الأمريكي "تشارلز ساندرز بيرس" في "كامبردج" بولاية "ماساتشوستس" الأمريكية في ١٠ سبتمبر سنة ١٨٣٩م، وكان والده "بنيامين بيرس" أستاذًا جامعيًّا وقطبًا في علم الفلك والرياضيات بجامعة "هارفارد"، وفيها درس وحصل على الماجستير في الرياضيات، والبكالوريوس في العلوم الكيميائيّة، وقد عانى "بيرس" أواخر سن المراهقة من حالة عصبية عرفت باسم "ألم عصب الوجه"، والتي سميت فيما بعد بالألم العصبي الثلاثي، ومن أعراضه الاكتئاب، وتقلب المزاج، والميول إلى العزلة الاجتماعية[٢].

اشتغل "بيرس" بعد تخرجه مع والده في إدارة مسح الأراضي والمسح الساحلي الأمريكي، وفيها تقلد عددًا من المناصب بين عامي ١٨٦١ و١٨٩١، وضمنت له هذه الوظيفة الإعفاء من التجنيد في جيش الاتحاد خلال الحرب الأهلية الأمريكية (١٨٦١–١٨٦٥)، ثم انتخب زميلًا مقيمًا في الأكاديمية الأمريكية للفنون والعلوم في يناير ١٨٦٧، ثم سافر في مهمات مسحية خمس مرات إلى أوروبا، وكانت المرة الأولى في ١٨٧١ ضمن مجموعة أرسلت لمراقبة كسوف الشمس، وخلال هذه الزيارات قابل عددًا من علماء الرياضيات البريطانيين والمنطقيين المهتمين بعلوم العقل، وفي ٢٠ أبريل ١٨٧٧ انتخب عضوًا في الأكاديمية الوطنية للعلوم.

(١) كوبلستون، فريديريك، تاريخ الفلسفة، (٨/ ٤٣٧).

(٢) موريس، تشارليز، رواد الفلسفة البراجماتية، صـ(٣٥).

فرض "بيرس" نفسه كفيلسوف بعدما درس الفلسفة في جامعة "هارفارد"[١] خلال عامي ١٨٦٤، و١٨٦٥، ثم تابع دراسته خلال عامي ١٨٦٩، ١٨٧٠، ودرس المنطق في جامعة "جون هوبكنز" في الفترة من ١٨٧٩ إلى ١٨٨٤م.

ويصف "بيرس" نفسه أثناء دراسته للفلسفة: "أنه عندما كان يدرس المدارس الفلسفية كلها، ويتتبع طرائق الفكر عند أصحابها، لم يكن ينظر إليها من وجهة نظر الفيلسوف اللاهوتي، الذي يتناول مادته وكأنما هي معصومة من الخطأ، بل كان ينظر إليها من وجهة نظر الباحث العلمي في معمله، فيبحث عن الجديد الذي لم يُعْرَف بعد"[٢].

اتجه "بيرس" إلى تصنيف الكتب وكتابة المقالات بجوار عمله المسحي خلال الفترة من١٨٨٣ إلى ١٩٠٩، ثم تفرغ للكتابة بعد أن تقدم باستقالته عام ١٨٩١م، بعدما تمت تبرئته في تحقيق أجري معه من قبل لجنة "أليسون"، لكنه أدى إلى إقالة المشرف والعديد من موظفي مسح الساحل الآخرين؛ لسوء استخدام الأموال العامة، بعدها تفرغ لمتابعة أبحاثه، التي اتّخذت وجهة فلسفيَّة تحت تأثير اطّلاعه على كتابات "شيلر" (Shiller) و"كانط" (Kant)، وهذا ما أهّله للكتابة في عددٍ من المجلات المتخصصة[٣].

دعي "بيرس" لكتابة عدد من المقالات الفلسفية والمنطقية في قاموس القرن، والمشاركة في لجان تحريره في الفترة من ١٨٨٩ إلى

(١) كوبلستون، فريديريك، تاريخ الفلسفة، (٨/ ٤٣٨).

(٢) بيرس، تشارليز، مجموعة الأبحاث، (٢/ ١٢٢)، وينظر أيضًا: محمود، زكي نجيب (الدكتور)، من زاوية فلسفية، صـ(٢٠٢).

(٣) الحاج، كميل، الموسوعة الميسرة في الفكر الفلسفي والاجتماعي، ط مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، ط الأولى، سنة ٢٠٠٠، صـ(١٣٥ – ١٣٧).

١٨٩١م، كما شارك في إعداد قاموس الفلسفة وعلم النفس في الفترة من ١٩٠١ إلى ١٩٠٥م، وكتب عددًا من المقالات في مواضيع شتى من التخصصات مثل الرياضيات، والمنطق، والفلسفة، والإحصاءات، وعلم الفلك، والمقاييس، وعلم النفس التجريبي، والاقتصاد، واللغويات، والتاريخ، وفلسفة العلم(١).

ويعتبر "بيرس" مؤسس "البراجماتية"، وكان ذلك في أوائل عام ١٨٧٠م، خلال الجلسات النقاشية بين "بيرس" و"وليم جيمس"، وغيرهم في النادي الميتافيزيقي(٢).

وقد تركزت فكرة البراجماتية في نشأتها على أنّ العقل لا يدرك غايته إلا إذا قاد صاحبه إلى العمل الناجح؛ فالفكرة الصحيحة هي الفكرة الناجحة المفيدة، والمعيار الوحيد للحقيقة هو فعاليتها ونجاحها، والبراجماتية في المعرفة هي القول بأنّ القانون العلمي (أو القاعدة العلميّة) لا يكون إلَّا عند التطبيق في ظروف عمليّة بصورة ناجحة ونافعة، وهو مضمون ما سمّي بـ: " "قانون بيرس" قيمة فكرة ما تكمن في نتائجها العمليّة"(٣).

ووصف "بيرس" فلسفته قائلًا: "إن فلسفتي يمكن وصفها بأنها محاولة فيزيائي في أن يصور بنية الكون تصويرًا لا يتعدى ما تسمح به مناهج البحث العلمي، مستعينًا في ذلك بكل ما سبقني إليه السالفون، لكنني لن أصنع في هذا طرائق الميتافيزيقيين في الاستنباط الذي يقيمونه على فروض من عندهم، ويصلون به إلى براهين يصفونها بالصواب

(١) موريس، تشارليز، رواد الفلسفة البراجماتية، صـ(٢٢).

(٢) كوبلستون، فريديريك، تاريخ الفلسفة، (٨/ ٤٤٠).

(٣) روزنتال، م، و يودين، ب، الموسوعة الفلسفيّة، ترجمة سمير كرم، ط دار الطليعة بيروت، لبنان، ط الأولى، ١٩٨٧م، صـ(٩٨).

القطعي الذي لا يتعرض للتعديل على ضوء ما قد تكشف عنه البحوث العلمية فيما بعد، كلا، بل طريقتي هي طريقة العلم نفسها، وهي أن أقدم صورة للكون على سبيل الافتراض الذي ينتظر الإثبات على أساس ما قد يتكشف لنا من حقائق، ولذلك فأول ما يتميز بقابليته للصواب وللخطأ، وفق ما تقدمه المشاهدة لنا بعدئذ من الشواهد"[١].

نشر "بيرس" طوال حياته عددًا من المقالات، تمّ تجميعها بعد وفاته، نشرت في ثماني مجلّدات تحت عنوان: "مجموعة أبحاث س بيرس"، ومن هذه المقالات كانت أولى محاولاته الفلسفيّة لوضع دعائم البراجماتية، وهي: "تثبيت المعتقد" (١٨٧٧)، "كيف نجعل أفكارنا واضحة؟" (١٨٧٨)، ومن أعماله أيضًا "دراسات في المنطق" (١٨٨٣)، و"الهندسة المعماريّة للنظريّات" (١٨٩٠)، و "ما الذرائعيّة؟" (١٩٠٥)، و"نشأة الذرائعيّة" (١٩٠٥)[٢].

اتسمت كتابات "بيرس" بالصعوبة، فلم يكن شعبيًّا في كتابته، لذا وُصِف بأنه يعسر على القارئين ممن لم يأخذوا أنفسهم بفهم مصطلحاته التي خلقها لنفسه؛ ليبعد بألفاظه عن استعمالها في الحياة اليومية، وحمله على هذا أنه يريد الدقة في التفكير والتعبير، وأن الألفاظ السارية في الشؤون الجارية معيبة بالغموض –حسب فكره–، فلو نقلت هذه الألفاظ باستعمالاتها اليومية استحال عليه ما أراد لفكرته من دقة وتحديد، لذلك اضطر إلى صياغة ألفاظ خاصة به، روعي فيها أن تكون غليظة، حتى لا يستسيغها عامة الناس فتسري بينهم فتعود إلى الغموض من جديد[٣].

(١) محمود، زكي نجيب (الدكتور)، من زاوية فلسفية، صـ(٢٠٤).

(٢) طرابيشي، جورج، معجم الفلاسفة، ط دار الطليعة بيروت، لبنان، ط الثالثة، ٢٠٠٦م، صـ(٢٢٠– ٢٢١).

(٣) محمود، زكي نجيب (الدكتور)، حياة الفكر في العالم الجديد، صـ(١٢٠، ١٢١).

وخير مثال على ذلك استعماله لكلمة البراجماتية التي شاعت بعد ذلك اسمًا لمذهبه، فلما خشي من استعمال الكلمة الجارية الدالة على هذا المعنى، وهي لفظة Practice ، وتعني: "ممارسة أو عملي"؛ صاغ لنفسه كلمة قريبة منها لتدل على ما يريد لتكون فيما بعد اصطلاحًا خاصًّا في مجال بحثه الخاص، وهي كلمة براجماتية[١]،Pragmatism ، فمذهب "بيرس "البراجماتي" هو قاعدة منطقية "لتحديد" المعنى"، أو بعبارة أخرى يمكن القول بأن "براجماتية بيرس" هي نظرية في المعنى، ولا شأن لها بعد ذلك، أصدق الكلام أم لم يصدق على الواقع ؛حيث إنها تنظر لجميع الأفكار بنفس المنظار، وأنه ليست هناك أية فكرة معصومة، وينبغي إخضاع الجميع للبحث العلمي[٢].

ورغم حرص "بيرس" ودقته في استخدام الألفاظ إلا إنه لم يسلم من توجيه النقد خصوصًا من المفكرين ومن أنصار المذهب البراجماتي أنفسهم، مثل: "وليم جيمس" و"جون ديوي"، وذلك لأنه حصر تفكيره في اخضاع الفكر لما يجري في معامل العلوم الطبيعية، ولما كانت الفكرة في المعمل لا تقبل إلا إذا كانت لها نتائج عملية مشاهدة، فقد جعل هذا المبدأ منطلقًا لنظريته في المعرفة، وترتب على هذا توجيه النقد له من قبل رفقائه من أنصار المذهب الجديد[٣].

وقد أثنى كبار الفلاسفة على "بيرس"، فمما قيل فيه ما ذكره الفيلسوف "بول فايس" عام ١٩٣٤: "إنه أكثر الفلاسفة الأمريكيين تنوعًا، وإنه أكبر منطقي أميركي"[٤]، وذكر قاموس "وبيستر" للسيرة الذاتية أن

(١) كوبلستون، فريديريك، تاريخ الفلسفة، (٨/ ٤٥٥).

(٢) محمود، زكي نجيب، حياة الفكر في العالم الجديد، صـ(١٢٠، ١٢١).

(٣) رايت، وليم باركلي، تاريخ الفلسفة الحديثة، صـ(٢٤٥).

(٤) ويس، بول، قاموس السيرة الذاتية الأمريكية، حرف "**P**" ترجمة "بيرس،ساندرز"، ط ١٩٣٤م.

"بيرس": "يعتبر الآن المفكر الأكثر منطقية وأكبر منطقي في عصره"، كما اعتبره "كيث ديفلن" واحدًا من أعظم الفلاسفة على الإطلاق(١).

وقد وصف الدكتور زكي نجيب محمود "بيرس" بأنه اشتغل معظم حياته باحثًا علميًّا يبتكر الجديد ويشق لنفسه في الفكر طريقًا فريدًا، فكانت ثمرة هذا الإنتاج الذي بدأ في تكوين مدرسة فكرية جديدة، أخذت تضرب بجذورها حتى أصبحت تنشر ظلها على الولايات المتحدة باسم الفلسفة البراجماتية، بل أخذت تمتد بفروعها خارج بلادها فيؤيدها المؤيدون، ويحترمهما الناقدون(٢).

توفي "بيرس" في التاسع عشر من أبريل سنة ١٩١٤م(٣).

٢- وليم جيمس، "William James"(١٨٤٢- ١٩١٠)

ولد "وليم جيمس" في ١١ يناير سنة ١٨٤٢م في ولاية "نيويورك" بالولايات المتحدة الأمريكية، لأسرة مثقفة عريقة في الثقافة، حيث كان والده "هنري جيمس" في حياته الدراسية الوسطى طالبًا للاهوت في معهد "برنستون" الديني(٤)، وقد تركت هذه الفترة في نفسه اشمئزازًا شديدًا من رجال الدين عبَّر عنه طوال حياته، وقد اهتم اهتمامًا بالغًا بتثقيف ابنه، فأرسله إلى المعاهد الخاصة في فرنسا، وإنجلترا، وسويسرا، وألمانيا، وكان يتمتع بقدر كبير من الثراء لما ورثه عن والده؛ مما مكن الابن من السفر والتجوال في كثير من بلدان أوروبا(٥).

---

(١) مريام، وبيستر، قاموس وبيستر للسيرة الذاتية، حرف "**P**" ترجمة "بيرس، ساندرز"، ط سبرينغفيلد، ماساتشوستس، الولايات المتحدة، ١٩٦٠م.

(٢) محمود، زكي نجيب، حياة الفكر في العالم الجديد، صـ(١٢٠).

(٣) طرابيشي، جورج، معجم الفلاسفة، ط دار الطليعة بيروت، لبنان، ط الثالثة، ٢٠٠٦م، صـ(٢٢٠- ٢٢١).

(٤) كوبلستون، فريديريك، تاريخ الفلسفة، (٨/ ٤٧٥).

(٥) رايت، وليم باركلي، تاريخ الفلسفة الحديثة، صـ(٢٥٠).

اهتم "وليم جيمس" في صغره بدراسة فن التصوير، ثم التحق للدراسة في جامعة "هارفارد"، لكنه انقطع عن الدراسة ليكون برفقة العالم الفرنسي "لوي أجاسيز"، وهو متخصص في علم النبات والحيوان، فسافر معه عبر رحلة استكشافية إلى الأمازون، ولأسباب صحية عاد والتحق بكلية الطب، وفي سنة ١٨٦٧م إلى ١٨٦٨م، سافر إلى ألمانيا لحضور محاضرات الفيزيائي الألماني الكبير "هلمهولتس" واضع قانون حفظ الطاقة، كما سافر إلى فرنسا وحضر محاضرات "كلود برنار"، وهناك اطلع على مؤلفات كثير من المفكرين والعلماء، فكان لذلك أثرٌ هائلٌ في تحويل مجرى فكره(١).

درس "وليم جيمس" علم النفس أولًا، ثم الفيزياء، والفلسفة، ثم حصل على الدكتوراه في الطب من جامعة "هارفارد" سنة ١٨٧٠م، ثم عين فيها أستاذًا للفسيولوجيا والتشريح، ثم أستاذًا لعلم النفس عام ١٨٧٦م، ثم أستاذًا للفلسفة عام١٨٨١م، وشغل كرسي علم النفس سنة ١٨٨٩، وأثمرت هذه الفترة كتابًا أصدره سنة ١٨٩١ تحت عنوان: "الوجيز في علم النفس"، "وقد جعل من السيكولوجيا لأوّل مرّة في أمريكا، فرعًا علميًّا مستقلاً"(٢).

عاد "وليم جيمس" مرّة أخرى لتدريس الفلسفة عام ١٨٩٧م، وحظي على درجة أستاذ متميّز فيها عام ١٩٠٧م، فبعد أن أرسى الأسس السيكولوجيّة لفكره، عكف ينشئ تفرّعاته الفلسفيّة، ففي كتابه "إرادة الاعتقاد، الذي أصدره عام ١٨٩٧م"، قدّم تبريرًا نفسيًّا (سيكولوجيا) لظاهرة

(١) راسل، برتراند، تاريخ الفلسفة الغربية، صـ(٣/ ٤٠١)، وينظر أيضًا: محمود، زكي نجيب،= =موسوعة الفلسفة، (١/ ٤٤٧)، حرف الجيم، ترجمة جيمس، وليم.

(٢) طرابيشي، جورج، معجم الفلاسفة، مرجع سابق، صـ(٢٦٧).

"الإيمان"[١]، ثم تطورت بحوثه المطولة فيما بعد في علم النفس، وفي فلسفة الأديان؛ ليصدر عام ١٩٠٢ "الصور المختلفة للتجربة الدينيّة"، وقد درس "جيمس" في هذا الكتاب الإيمان الديني، ليس من وجهة نظر "الصحّة العلميّة" لبعض المذاهب الدينيّة، بل من وجهة نظر "الصلاحية السيكولوجيّة"، وبالتالي –"الذرائعيّة" أو "البراجماتية"– للتجربة الدينيّة ذاتها؛ فهل هي مفيدة أم لا، للبقاء الإنساني ولاستمرار الحياة، وللخلاص الروحي والاجتماعي؟"[٢].

من مؤلّفاته: "مبادئ علم النفس" ١٧٩٠م، و"الوجيز في علم النفس" ١٨٩١م، و"إرادة الاعتقاد" ١٨٩٧م، و"ضروب التجربة الدينيّة" ١٩٠٢م، و"البراجماتية" ١٩٠٧م، و"كون متعدّد" ١٩٠٩م، و"معنى الحقيقة" ١٩٠٩م، واهتم تلميذه "رالف بارتون" بنشر العديد من كتبه بعد وفاته، مثل كتاب "بعض مشكلات الفلسفة" ١٩١١م، ومحاولات في التجريبية البحتة، وغيرهما[٣].

توفّي "وليم جيمس" سنة ١٩١٠م، بـ "نيوهامشير" " New Hampshire"، شمال شرق الولايات المتّحدة الأمريكيّة، بعد أن ذاعت فلسفته البراجماتية في أمريكا وأوروبا، ولقيت اهتمامًا بالغًا خارج موطنها الأصلي، وتمت ترجمة كتبه إلى كثيرٍ من اللغات[٤].

(١) رايت، وليم باركلي، تاريخ الفلسفة الحديثة، صـ(٢٥١).

(٢) طرابيشي، جورج، معجم الفلاسفة، صـ(٢٦٧).

(٣) كرم، يوسف، تاريخ الفلسفة الحديثة، طبعة دار المعارف، القاهرة، ط الخامسة، ١٩٨٦م، صـ(٤١٦).

(٤) روزنتال، م، و يودين، ب، الموسوعة الفلسفيّة، ترجمة سمير كرم، ط دار الطليعة بيروت، لبنان، ط الأولى، ١٩٨٧م، صـ(١٧٣).

٣- جون ديوي "John Dewey"(١٨٥٩- ١٩٥٢).

ولد "جون ديوي" في العاشر من أكتوبر سنة ١٨٥٩ في "برلنجتون" بولاية "فيرمونت" الأمريكيّة، وبها درس تعليمه الأولي، ثم التحق بجامعة "فيرمونت" سنة ١٨٧٥م، وعلى الرغم من اهتمامه بالفلسفة أثناء دراسته في الجامعة، إلا أنه كان مترددًا غير مستقر الاتجاه في الدراسة، وبعد تخرجه صار مدرسًا للكلاسيكيات والعلوم والجبر في مدرسة ثانوية في "بنسلفانيا" من سنة ١٨٧٩م إلى ١٨٨١م(١)، بعدها عاد إلى "برلنجتون" وواصل التدريس، ثم التحق بالدراسات العليا بجامعة "جونز هوبكنز"(٢)، حيث تعلم على يد "بيرس"، أستاذ المنطق في تلك الجامعة(٣)، و"جي إس هل" G. S. Hall، أول أمريكي اهتم بالتجريب في علم النفس، وتأثر "ديوي" بـ"جي إس موريس G.S. Mrris، الذي كان متأثرًا بـ "هيجل" وينزع منزعًا مثاليًّا، وقد أثر هذا في فكر "ديوي"، فقد ظل فترة متأثرًا بالهيجلية المثالية، وكان حينها شديد الحماسة للإصلاح الاجتماعي(٤).

إذا كان لـ "جون ديوى" مركزٌ كبيرٌ في تاريخ الفكر المعاصر، فما ذلك لمجرد كونه علمًا من أعلام الفلسفة الأمريكية في القرن العشرين فحسب، بل لأنه قد نجح أيضًا في التأثير على كثيرٍ من معاصريه في مضمار الفكر الأمريكي المعاصر، فضلًا عن أنه قد وسع من نطاق الفلسفة البراجماتية ، فامتد بها إلى دوائر أخرى لم تخطر لكل من "بيرس"

(١) راسل، برتراند، تاريخ الفلسفة الغربية، صـ(٣/ ٤١١).
(٢) كوبلستون، فريديريك، تاريخ الفلسفة، (٨/ ٥٠٨).
(٣) راسل، برتراند، تاريخ الفلسفة الغربية، صـ(٣/ ٤١١).
(٤) محمود، زكي نجيب، موسوعة الفلسفة، (١/ ٤٩٩)، حرف الدال، ترجمة ديوي، جون.

و "جيمس" على بال[١]، وقد أطلق عليه "برتراند راسل" أنه الفيلسوف الحي القائد للفلسفة في أمريكا[٢].

إذا كانت برجماتية "بيرس" قد ارتبطت ببعض الدوافع النقدية والعلمية، وإذا كان انطلاق برجماتية "چيمس" عن بعض البواعث الأخلاقية والدينية، إلا أننا نجد أن "جون ديوي" لديه نزعة توفيقية من أجل الجمع بين الاتجاهين، مع الاهتمام في الوقت نفسه بتطبيق المنهج البرجماتي على الخبرة البشرية، فلم يكن "ديوى" مجرد تلميذ لكل من "بيرس" و"جيمس"، ولم ينحصر جهده الفلسفي في التأليف بين تعاليم هذين الفيلسوفين البرجماتيين، بل نجد أنه قد بدأ حياته الفلسفية تحت تأثير المثالية الهيجلية والنزعة الكانطية الجديدة، ونظرية التطور، ودلالة ذلك أن اهتماماته الفلسفية المبكرة قد اتجهت نحو مشكلة المعرفة، "الإبستمولوجيا"، كما أن كثيرًا من محاولاته الفلسفية الأولى قد انحصرت في إثارة بعض المشكلات السيكولوجية والمنطقية والميتافيزيقية، خصوصًا ما يتعلق منها بطبيعة الفكر والحكم[٣].

في سنة ١٨٧٩م، نشر "ديوي" أوّل بحث فلسفي له في إحدى المجلات العلميّة، وتمكّن من نيل درجة الدكتوراه في الفلسفة سنة ١٨٨٤م، من جامعة "جونز هوبكنز"، وكان موضوعها "علم النفس عند كانط"، ثم عمل مع "موريس" في جامعة "ميتشيجان" سنة ١٨٨٤م، وبقي فيها لمدة عشر سنوات، وأثناء عمله بتلك الجامعة تغيرت أفكاره فضاق ذرعًا بالمثالية الهيجلية، واتجه بفلسفته اتجاهًا عمليًّا، ورأى أن الفلسفة

(١) ينظر: إبراهيم، زكريا (الدكتور)، دراسات في الفلسفة المعاصرة، صـ(٥٨).
(٢) راسل، برتراند، تاريخ الفلسفة الغربية، صـ(٣/ ٤١١).
(٣) ينظر: إبراهيم، زكريا (الدكتور)، دراسات في الفلسفة المعاصرة، صـ(٥٨).

ينبغي أن تتناول شؤون الإنسان العملية، ثم انتقل سنة ١٨٩٤م للعمل بجامعة "شيكاغو"، وترأّس فيها قسم الفلسفة وعلم النفس والتربية[١].

انطلق "جون ديوي" من جامعة "شيكاغو"، فأنشأ ما يعرف باسم "معمل ديوي"، وذلك للقيام بتجارب في علم النفس والتربية لتحقيق فروضه التربويّة التي سميت بالتقدُّميَّة أو "البراجماتية"، إلا أنّ معارضة القائمين على شؤون الجامعة لتجاربه دفعته إلى الاستقالة سنة ١٩٠٤م، ومن ثمّ انتقل إلى كلِّيَّة المعلّمين بجامعة "كولومبيا"، وظل بها إلى أن بلغ سنّ التقاعد سنة ١٩٣٠م، وبين سنة ١٩١٩م وسنة ١٩٢١م ألقى محاضرات في "طوكيو"، و"بكين"، وجاب كثيرًا من بلدان العالم[٢].

انصرف "ديوي" باهتمامه أولَ الأمر إلى "التربية"، يمعن النظر في أسسها وطرائقها، فلم يكن من الغريب على مفكر كان يشعر دائمًا بالحاجة إلى تطبيق أفكاره، والتثبت من صحتها في مضمار الخبرة العملية، من أن ينتقل من مضمار علم النفس إلى مضمار علم التربية، وكأنه أراد التحقق من صدق نظرياته في الذكاء والنشاط الذهني بصفة عامة عن طريق العمل على تطبيقها في مجال التربية العملية[٣]، وقد كان من بين الأسباب التي حدت به إلى قبول دعوة جامعة "شيكاغو" سنة ١٨٩٤ أن علم التربية كان يمثل عندها موضوعًا أساسيًّا من موضوعات قسم الفلسفة وعلم النفس، وقد استطاع "ديوي" هناك أن يفتتح مدرسة أولية –تحت

(١) طرابيشي، جورج، معجم الفلاسفة، صـ(٣١١).

(٢) شاخت، ريتشارد، رواد الفلسفة الحديثة، ترجمة الدكتور أحمد حمدي محمود، طبعة وزارة الثقافة، مصر، ١٩٩٧م، صـ(٢٥، ٢٦).

(٣) راسل، برتراند، تاريخ الفلسفة الغربية، صـ(٣/ ٤١٢).

رعاية جامعة شيكاغو– عرفت فيما بعد باسم المدرسة التجريبية، كما اشتهرت باسم "مدرسة ديوي"(١).

أصدر "ديوي" أول كتاب تربوي له بعنوان: "المدرسة والمجتمع" "School And Society"، وذلك عام ١٨٩٩م، وحاول فيه أن يبين للمربين والمعلمين كيف أن محور العملية التربوية هو "ذات المتعلم"، لا مادة الموضوع المدروس، وكيف يمكن لتلاميذ المدرسة أن يُكوِّنُوا فيما بينهم مجتمعًا صغيرًا يشبه –في تقسيمه وحياته ونشاطه– المجتمع الكبير، وليس أدل على نجاح هذا المؤلَّف من أنه قد تُرجم بسرعة إلى لغات شتى، ومنها اللغة العربية، فلم تلبث مبادئ "ديوي" التربوية أن شاعت في العالم أجمع(٢).

ثم تلا كتاب "المدرسة والمجتمع" كتاب آخر هو: "الديمقراطية والتربية" Democracy And Education ، بين فيه أن تربية النشء ينبغي أن يراعى فيها المواءمة بين الناشئة وبيئتهم، لا على أن يحافظ على التقاليد القديمة مهما تكن آثارها على حياته العملية الجديدة(٣).

شملت كتابات "جون ديوي" مجالات مختلفة؛ فقد كتب في مواضيع عديدة، مثل: فلسفة العلوم، والمنطق، وعلم النفس، وعلم الجمال، والتربية، والدين، والفلسفة، وقد برع في الكتابة عن البراجماتية ، وقد سُمّيت فلسفته بـ"الأداتيّة "Instrumentalism" "أو الوظيفيّة "Fonctionalism"، لاعتباره المعرفة آلةً أو وظيفةً في خدمة مطالب الحياة"(٤).

(١) ينظر: إبراهيم، زكريا (الدكتور)، دراسات في الفلسفة المعاصرة، صـ(٦٠).
(٢) كوبلستون، فريديريك، تاريخ الفلسفة، (٨/ ٥٠٩).
(٣) السابق، (٨/ ٥٠٧).
(٤) الحاج، كميل، الموسوعة الميسرة في الفكر الفلسفي والاجتماعي، صـ(٢٤٦).

ويعتبر "ديوي" أنّ مشكلة الفلسفة تكمن في اختلاط مباحثها بالأبحاث الدينيّة، ويضرب على ذلك مثالًا بفلسفة أفلاطون التي اتّخذت بعدًا سياسيًّا رمى به إلى تنظيم مجتمع يسوده العدل ولكنّها تاهت في أحلام العالم الآخر، وكذلك الشأن في الفلسفة الألمانيّة التي انحرفت في نظره عن مجرى تطوّر الفلسفة حين اهتمّت بالمسائل الدينيّة(١).

وتتميز فلسفة "جون ديوي" باستخدام منهج العلوم عند التفكير في القيم، فذهب إلى القول بأن الصورة المثلى التي نصور بها فضيلة من الفضائل ينبغي أن تكون بمثابة فرض عملي يخضع للتجربة العملية، فإن ثبت صدقه على الواقع كان بها، وإلا وجب صياغته مرة أخرى، بحيث يحقق للإنسان حياة يبتغيها، وليست العبرة هنا بكل فرد على حدة، بل بمجموع الأمة أو الإنسانية كلها تمامًا كالفروض، لا تتحقق لفرد بعينه وكفى، بل لا بد لها أن تتحقق لمجموعة العلماء المشتغلين بالفرع الذي جاءت تلك الفروض لتفسير الظواهر التي تقع في مجاله(٢).

ومن أهم الموضوعات التي دار حولها فكر "جون ديوي" هي عملية تحليل الفكرة نفسها، والتساؤل عن طبيعتها وأصلها؟ ،وكيف تطورت في عقل الإنسان من أصولها البيولوجية والاجتماعية الأولية البسيطة ،حتى أصبحت على ما أصبحت عليه؟.

ولقد انفرد "جون ديوي" وحده دون سائر البراجماتيين بما يسميه "مذهب الوسيلة " أو "المذهب الذرائعي"، وهو أنه ليس هناك حقيقة قائمة بذاتها أبدًا، بل إن كل حقيقة إنما هي خطوة في طريق متسلسل طويل،

(١) محمود، زكي نجيب، موسوعة الفلسفة، (١/ ٤٩٩)، حرف الدال، ترجمة ديوي، جون.
(٢) كوبلستون، فريديريك، تاريخ الفلسفة، (٨/ ٥١٠).

يؤدي في النهاية إلى حل لمشكلة معينة، وهذا الحل الأخير نفسه يستحيل أن يكون حقيقة قائمة بذاتها، بل إنه سرعان ما يصبح حلقة في سلسلة فكرية جديدة، يراد بها حل إشكال جديد(١).

ومن مؤلّفات "جون ديوي": "دراسات حول النظريّة المنطقيّة" ١٩٠٣م، "كيف نفكّر؟" ١٩١٠م، "الديمقراطيّة والتربية" ١٩١٦م، و"محاولات في المنطق التجريبي" ١٩١٦م، و"العقل الخالق" ١٩١٨م، و"الطبيعة الإنسانيّة والسلوك" ١٩٢٢م، و"البحث عن اليقين" ١٩٢٩م.

توفي "جون ديوي" سنة ١٩٥٢م(٢).

(١) ينظر: كوبلستون، فريديريك، تاريخ الفلسفة، (٨/ ٥٢٠).

(٢) الحاج، كميل، الموسوعة الميسرة في الفكر الفلسفي والاجتماعي، ط مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، ط الأولى، سنة ٢٠٠٠، صـ(٢٤٦).

المبحث الثاني
التفسير البراجماتي للحقيقة

ترجع أهمية بحث التفسير البراجماتي للحقيقة إلى توقف كثيرٍ من أحكام البراجماتيين في المسائل الفلسفية عليها، وذلك لأن تصورهم عن الفلسفة ومباحثها متوقفٌ على تفسيرهم للحقيقة، وقد لخَّص ذلك الدكتور عبد الرحمن بدوي بقوله: "لو سألنا البراجماتية عن تصورهم للفلسفة، لوجدناه مرتبطًا بصميم مذهبهم في القول بأن حقيقة الفكرة تقوم على فعالية نتائجها العملية، وأن المفكر –البراجماتي– متعلقٌ أساسًا بالعمل"(١).

فاهتمام البراجماتية بالبحث في الحقيقة جاء من منطلق اعتقاد أصحابها بأن الفلسفة لم تنشأ عن مجرد التفكير النظري في مشاكل الوجود والكون والإنسان، بل جاء من محاولة للتوفيق بين المعتقدات المنقولة والشائعة والتبرير العقلي لها، ويرى البراجماتيون أن عليهم استخراج النواة الأخلاقية الجوهرية من المعتقدات التقليدية في الماضي، ولما كانت البراجماتية تهدف إلى التبرير العقلي للأمور التي قبلها الناس لأسباب انفعالية واجتماعية، فإن عليها أن تهتم بجهاز عقلي للبرهان، ومن هنا جاء اهتمامها بالبحث في الحقيقة وتفسيرها(٢).

والحقيقة في اللغة: من الحق وهي الشيء الثابت(٣)، وتطلق على ما أقر في الاستعمال على أصل وضعه، والمجاز ما كان بضد ذلك، وحقيقة الشيء خالصه، وكنهه، ومحضه، وحقيقة الأمر يقين شأنه، وحقيقة الرجل ما يلزمه حفظه والدفاع عنه.

ولها عند الفلاسفة عدة معان:

(١) محمود، زكي نجيب (الدكتور)، مدخل جديد إلى الفلسفة، صـ(٢٦).
(٢) موريس، تشارليز، رواد الفلسفة البراجماتية، صـ(٥٣).
(٣) ابن منظور، لسان العرب، حرف الحاء، مادة حق.

الأول: هو مطابقة التصور أو الحكم الواقع، فالحقيقة بهذا المعنى اسمٌ لما أريد به حق الشيء إذا ثبت، وتطلق الحقيقة على الشيء الثابت قطعًا ويقينًا.

والثاني: هو مطابقة الشيء لصورة نوعه، أو لمثاله الذي أريد له، فالحقيقة بهذا المعنى هي ما يصير إليه حق الشيء ووجوبه(١).

والثالث: هو الماهية أو الذات، وحقيقة الشيء ما به الشيء هو هو، كالحيوان الناطق للإنسان، وقد يقال إن ما به الشيء هو هو باعتبار تحققه حقيقة، وباعتبار تشخصه هوية، ومع قطع النظر عن ذلك ماهية(٢).

والرابع: هو مطابقة الحكم للمبادئ العقلية، وهي التي يقصد بها مطابقة الفكر للأشياء، أو هي "تطابق الشيء والعقل"، فالحقيقة عندئذ تجمع بين حدين، الفكر من ناحية، والشيء أو الاشياء من ناحية أخرى(٣).

مفهوم الحقيقة من منظور براجماتي.

لم يرتض البراجماتيون تعريف الحقيقة بـ "التطابق مع الواقع"؛ لأنهم رأوا أنه تعريف لا يحسب حسابًا لطابع الفكر الجوهري، إذ يجعل من الفكر مجردَ نسخةٍ من الواقع، ومن الحقيقة مجرد علاقة جامدة ساكنة، بينما الفكر في جوهره مرتبطٌ بالفعل –العمل–، والعالم الذي يحقق فرضًا إنما يبين بالتجارب العملية في المعمل صحة هذا الفرض، ولهذا جنح البراجماتيون إلى تعريف الحقيقة بواسطة نتائجها العملية، فالحق عندهم هو ما ينجح، وهو المفيد النافع، وينطبق مبدأ النفع أيضًا على ما يتعلق

(١) صليبا، جميل، المعجم الفلسفي، (١/ ٤٨٥).
(٢) الجرجاني، محمد، التعريفات، حرف الحاء، مادة حقيقة، صـ(٨٠).
(٣) الحفني، عبد المنعم، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، صـ(٣٠٦).

بالاعتقاد الأخلاقي، فما هو حق هو ما يحقق في النهاية أكبر قدرٍ من الخير عملًا[١].

والحقيقة عند البراجماتيين هي الفكرة الناجحة، أو النافعة، أو الفرضية العلمية التي تحققها التجربة[٢].

أولًا: معنى الحقيقة عند "تشارلز بيرس".

عرف "بيرس" الفكرة بأنها: "مجال الفعل"[٣] "Plan of action" ، وكان هذا التعريف الجديد للفكرة هو جوهر التغيير الجذري الذي أحدثته الفلسفة البراجماتية للفلسفة حينئذ في بيان مفهوم الحقيقة، والتفكير الإنساني عند "بيرس" يجب أن يسير على نفس الأساس الذي يسير عليه في معامل الطبيعة، وفي أذهان العلماء الذين يقومون بتجاربهم في هذه المعامل، فالمعرفة عنده لا تستحق هذا الاسم إلا إذا كان لها نتائج عملية يمكن لكل إنسان أن يشاهدها، ومعنى اللفظ أو العبارة هو الذي يوجه الإنسان ويرشده إلى نوعٍ من السلوك أو الفعل، ولا يلزم للفكرة أن تؤدي بالضرورة إلى تحقيق حسي مباشر، وإنما يكفي أن تعطي للسلوك معنى[٤].

ويقرر "بيرس" بأن الفكرة إذا لم تترجم إلى سلوك معين أو فعل واضح، فإنها تصبح فكرة زائفة، وهذا الرأي شبيه برأي الوضعية المنطقية، وقد اعترف "بيرس" بذلك فقال: "إن البراجماتية بهذا المعنى نوع من الوضعية المنطقية بمعناها الواسع الشامل"[٥]، ومن هنا استبدل

(١) موريس، تشارليز، رواد الفلسفة البراجماتية، صـ(٨٥).
(٢) صليبا، جميل، المعجم الفلسفي، (١/ ٤٨٥، ٤٨٦).
(٣) "بيرس"، تشارلز، مجموعة الأبحاث، (٦/ ٢٥١).
(٤) موريس، تشارليز، رواد الفلسفة البراجماتية، صـ(٤٨).
(٥) "بيرس"، تشارلز، مجموعة الأبحاث، (٦/ ٢٥١).

البراجماتيون مقولة بروتاجوراس بأن الإنسان مقياس كل شيء إلى مقولة: "إن العقل مقياس لكل حق"(١).

ويوضح "بيرس" اهتمامه بالحقيقة في أول مقالتيه التي كتبهما، الأولى سنة ١٨٧٧ وعنوانها "تثبيت الاعتقاد" The fixation of Belief"، والثانية سنة ١٨٧٨ وعنوانها "كيف نجعل أفكارنا واضحة؟" "How to make our ideas clear?"، ومن النظرة الأولى لهاتين المقالتين يتبين بوضوح مدى اهتمام "بيرس" بالبحث في مشكلة الحقيقة، وتصوره يذهب إلى أن مجرد الاطلاع على الشيء وتحديده ليس كافيًا لجعل الأفكار واضحة، بل يجب ربط أفكارنا بالعمل، حيث يقول: "لكي تتأكد من معنى أي مفهوم عقلي، يجب أن تأخذ بعين الاعتبار النتائج العملية التي يمكن أن تحصل بالضرورة من حقيقة ذلك المفهوم، ومجموع كل تلك النتائج يشكل المعنى العام لذلك المفهوم"(٢).

والهدف الذي يسعى "بيرس" لبلوغه هو الوضوح في الأفكار، وهو نفسه هدف الفلاسفة أمثال "ديكارت" و"ليبنتز" وغيرهما من الفلاسفة، إلا أن "بيرس" لا يوافق ديكارت على طريقة الشك والغاية من الوضوح، ذلك أن الشك عند "بيرس" هو "حالة مزعجة لا نرضاها، وإننا نناضل دومًا لكي نتحرر منها لننتقل إلى حالة اليقين، اليقين الذي تعتقد به نحن، والاعتقاد لا يحملنا على العمل فورًا، ولكنه يضعنا في حالة تأهب للعمل بطريقة معينة عندما تسنح الفرصة لذلك"(٣).

(١) راسل، برتراند، تاريخ الفلسفة الغربية، (٢/ ٤٧٨).

(٢) ديوي، جون، مقالات في المنطق التجريبي،"**Essays in experimental logic**"، صـ(٣٠٧).

(٣) فان وسب، هـ، ب، الحكماء السبعة، صـ(٣١٧).

لذا فإن القاعدة التي وضعها "بيرس" للتحقق من دلالة المعاني التي نستخدمها تنحصر في: "ما قد ينتج عن هذا الموضوع من آثار عملية لا أكثر"[١]، وهذا يعني أن علامة الحقيقة أو معيارها العمل المنتج لا الحكم العقلي، وأن العمل مبدأ مطلقًا.

والتصور الذهني عند "بيرس" لا يتحقق إلا إذا نظر إلى نتائجه العملية التي قد تنتج عنه، "لكي يتيقن المرء من معنى تصور ذهني يجب عليه أن ينظر إلى النتائج العملية التي قد تنتج، فيما يمكن أن يتصوره بالضرورة من صدق هذا التصور، ويشكل مجموع هذه النتائج المعنى الكلي للتصور"[٢].

وإذا نظرنا في الدافع الذي جعل تشارلز "بيرس" يصوغ هذه القاعدة نجد أن دراسته العلمية هي التي دفعته إلى ذلك، وتشبه القاعدة المنهجية عند "بيرس" بفكرة تحقيق الفروض، تلك الفكرة التي استوحى أهميتها من العلم الحديث، لهذا قطع "بيرس" بأن جميع أفكارنا شبيهة بالفروض العلمية[٣].

والحقيقة عند "تشارلز بيرس" لا مضمون لها ولا معنى إلا بالقياس إلى آثارها العملية في حياة الناس، وعلى هذا فكل فكرة لا تنتهي إلى سلوك عملي في دنيا الواقع هي فكرة باطلة، والفكرة عند "بيرس" هي مجرد شروع للعمل، وليس هناك ما يسمى بالشيء في ذاته كما ذهب الفيلسوف "كانط" وغيره من العقليين، فحينما أستمع إلى عبارة الجاذبية لا يعنيني مفهومها ولا معناها، وكل ما يعنيني فائدتها فأتجنب السقوط[٤].

(١) فام، يعقوب، البراجماتية، صـ(١٤٤).
(٢) "بيرس"، تشارلز، مجموعة الأبحاث، (٥/ ٩١).
(٣) راسل، برتراند، تاريخ الفلسفة الغربية، (٢/ ٤٧٨).
(٤) ديورانت، ول، قصة الفلسفة، صـ(٦١٨).

وقد بسط هذه القاعدة شرحًا بقوله: "إننا لا نعرف على وجه التحقيق ما هي الكهرباء في حد ذاتها، أي إن فكرتنا عن الكهرباء غامضة، ولكن هذا الغموض يزول إذا وجهنا نظرنا إلى ما تؤديه لنا الكهرباء، أو إلى ما تحققه من أغراض عملية، ... المهم أن معنى الكهرباء يتردد بالنظر إلى آثارها التي نلمسها في تجربتنا اليومية، والأمر على هذا النحو فيما يتعلق بمعظم الأفكار"(١).

وقد حدد "بيرس" أن منهجه في بيان معنى الحقيقة يكون من خلال أمرين:

١- أن الفكرة الحقيقية هي التي تجد طريقها إلي التطبيق العملي، وتقودنا إلى الهدف(٢).

٢- أن فكرتنا عن موضوع ما هي فكرتنا عن النتائج المترتبة على الآثار العملية، فالعمل إذن هو المعيار لصدق الفكرة وليس الوعي المجرد(٣).

ومن هنا يلاحظ أن "بيرس" قام بنقل مناقشة مسألة الحقيقة إلى أرضية أخرى غير التي كانت تطرح فيها، فأصبح النقاش لا يدور حول الحقيقة العامة العارية، وإنما حول الاعتقاد في الحقيقة، وما ينتج عن الاعتقاد من حقيقة أو بطلان، فحول "بيرس" الاهتمام من مشكلة أصل الأفكار إلى مشكلة التحقق منها، ويلاحظ أنه قد وضع قاعدتين كأساس لنظريته في الحقيقة، يتضح فيهما جهوده بخصوص الهيكل المنطقي للتحقيق، هما:

(١) "بيرس"، تشارلز، مجموعة الأبحاث، (٦/ ٢٥١).
(٢) شنيدر، هربرت، تاريخ الفلسفة الأمريكية، صـ(٣٣٩).
(٣) "بيرس"، تشارلز، مجموعة الأبحاث، (٥/ ٩٣).

القاعدة الأولى: "أننا نعني بالحقيقة الرأي الذي يتحتم أن يوافق عليه في النهاية جميع من يتحرونه، وأن الموضوع الذي يتمثل فيه الرأي يطلق عليه مصطلح "الواقع"[١].

القاعدة الثانية: "أن الحقيقة هي تطابق بين تقرير حالة مجردة، مع رأي قاطع يؤدي إليه البحث إلى ما لا نهاية، بهدف الوصول به إلى يقين علمي، وهذا التطابق قد يتحقق بهذا التقرير المجرد، فالاعتراف بما قد يكتنفه من الخطأ والانحراف، وذلك عنصر أساسي في الحقيقة[٢].

ويلاحظ أن هاتين القاعدتين قد أكدتا على أهمية التحقيق بغية الوصول إلى اليقين، فالتحقيق الذي قصده "بيرس" من الأفكار هو ما ينتج منها ويخرج إلى الصعيد العملي، وما تخلفه من آثار حسية، ومن هنا جاء فهمه للحقيقة مرتبطًا بالتحقيق أو "التحققية" "Verificationnism" المرتبطة بدورها بالمنهج التجريبي، فكان تفسيره للحقيقة بأنها ما تألفت من المعلولات الحسية الجزئية التي تولدها الأشياء التي تشارك فيها، وأن الأثر الوحيد للأشياء الحقيقية هو أنها تسبب الاعتقاد، ذلك أن جميع الإحساسات التي تثيرها تبرز في الشعور في شكل اعتقادات. فالمسألة عندئذ هي كيفية التمييز بين الاعتقاد الحقيقي والاعتقاد الباطل، وأن ذلك التمييز لا يتحقق إلا من خلال المنهج التجريبي الذي يخضع للملاحظة والاختبار[٣].

ويؤخذ على تفسير "بيرس" للحقيقة أنها عجزت عن برهنة بعض الأفكار والمفاهيم الميتافيزيقية كـ فكرة الله، والحرية، والنفس، وهي أفكار لا تقبل التجربة، وتفلت من قبضة الملاحظة، إضافة إلى أن آراء "بيرس"

(١) شنيدر، هربرت، تاريخ الفلسفة الأمريكية، صـ(٣٣٩).
(٢) تايير، هـ، "بيرس" والحقيقة، ضمن تاريخ الفلسفة في أمريكا في ٢٠٠ عام، صـ(١٢٩).
(٣) ينظر: شنيدر، هربرت، تاريخ الفلسفة الأمريكية، صـ(٣٤١).

في الحقيقة تفتقر إلى الوحدة والتماسك، ويواجه من يقرأها صعوبات بالغة في إدراك مقصودها(١).

وعلى أية حال فإن تفسير "بيرس" للحقيقة كانت اللبنة الأولى لبيان موقف البراجماتية من الحقيقة، وقد حاول "وليم جيمس" و"جون ديوي" و"شيللر" حل الإشكالات الموجهة إلى تفسير "بيرس" للحقيقة، لكن كان منطلقهم من تفسير "بيرس" للفكرة أنها كي يكون لها معنى أو إمكانية التحقق منها فلا بد من تفحص النتائج العملية الناجمة عنها، فقام الرواد الأوائل للبراجماتية بالتوسع في هذا الأساس الذي وضعه المؤسس الأول للبراجماتية "بيرس"، فتوسعت دائرة الإشكالات في تفسيرهم للحقيقة بدلًا من إيجاد حل لها، وهذا ما سيتضح من خلال معنى الحقيقة عند كل من "وليم جيمس" و"جون ديوي".

ثانيًا: معنى الحقيقة عند "وليم جيمس":

لقد انطلق "جيمس" من نفس منطلق "بيرس" في تفسير الحقيقة، لكنه عدل عنه في تصور الحقيقة، فقرر بأن الشيء الذي تضيفه البراجماتية هو الجانب العملي فيما يخص امتلاك وامتحان الأفكار الصحيحة، فالأفكار الصحيحة عند جيمس هي ما يتسنى لنا أن نقيم عليها الدليل فنتعقلها، وندفع بمشروعيتها وصدقها وصحتها، فنوثقها ونحققها، أما الأفكار الباطلة فهي التي لا نستطيع فعل ذلك بالنسبة لها(٢).

إن إشارة "جيمس" الإضافة التي جاءت بها البراجماتية في هذا الجانب العملي يقصد النتائج التي سبق أن أشار إليها "بيرس"، لكنها مع

(١) تايير، هـ، "بيرس" والحقيقة، مرجع سابق، صـ(١٢٧).
(٢) جيمس، وليم، البراجماتية، صـ(٢٤٣).

"جيمس" تأخذ بعدًا آخر، فزيادة على نتائج التحقيق المباشر التي تتمثل في السلوك الظاهر أو المنافع المادية نجد أن "جيمس" يقتحم ميدان الدين والأخلاق، ليوسع من مساحة تصوره البراجماتي للحقيقة الذي يجعل منها مسلكًا ديناميكيًّا متصلا للتثبت من صحة فكرة من الأفكار، وما سينتج عنها، وما ستفضي إليه في لحظة من لحظات الخبرة، فيكون لها في هذه الحالة تحقيق غير مباشر(١)، فانطلق "جيمس" بالبراجماتية نحو الميتافيزيقا من مسار سيكولوجي، فقام بنقل النقاش من مجال الفلسفة إلى مجال علم النفس الذي كان بارعًا فيه، مع أن "بيرس" كان من أشد المعارضين لهذه الفكرة، وهي أن تقوم الحقيقة على أساس سيكولوجي(٢)، ونص على ذلك في مقالته: "كيف نجعل أفكارنا واضحة؟، فقال: "إن كل المحاولات التي تهدف إلى تطبيق أصول المنطق على علم النفس تبدو ضحلة من أساسها"(٣).

والحقيقة عند "جيمس" هي من صنع الإنسان، وهي "القيمة الفورية للفكرة"(٤)، ومدلول الفكرة عنده أيًّا كان نوعها هو نتائجها الفعلية التي تؤدي إليها، وتلك النتائج الفعلية هي البرهان القاطع على صحة الفكرة، فليس صحة الفكرة هو انطباقها على شيء ذهني أو خارجي موجود قبل وجود الفكرة، وإذا وافق البراجماتي على صدق فكرة معينة فإنه يوافق أيضًا مع كل ما تقوله عن موضوعها(٥).

(١) شنيدر، هربرت، تاريخ الفلسفة الأمريكية، صـ(٣٣٦).
(٢) راسل، برتراند، تاريخ الفلسفة الغربية، (٢/ ٤٨٠).
(٣) جون دوغريني، تشارليز، تشارليز "بيرس" ونقده للنفسانية، ضمن بيتر كاز، تاريخ الفلسفة في أمريكا في ٢٠٠ عام، صـ(١٦٩).
(٤) شنيدر، هربرت، تاريخ الفلسفة الأمريكية، صـ(٣٣٨).
(٥) ينظر: كوبلستون، فريديريك، تاريخ الفلسفة، (٨/ ٤٨٢).

وقد جعل "جيمس" الحقيقة أولى الخطوات التي انطلق منها إلى تأسيس "التجريبية الجذرية"، حيث يقول: "إنني الآن بصدد تأسيس مذهب جديد في الفلسفة أطلقت عليه اسم "التجريبية الجذرية"، وبدا لي أن تأسيس النظرية البراجماتية عن الحقيقة يمثل أولى الخطوات الضرورية لتحقيق القناعة بالتجريبية الجذرية، وتتكون التجريبية الجذرية أولًا من مسلمة، ثم حكم على الواقع، وأخيرًا من نتيجة عامة أو استنتاج عام"(١).

وعندما أراد "وليم جيمس" أن يطبق منهجه العلمي على طبيعة الحقيقة، ذهب إلى أن ما يحدد الحقيقة "Truth" على العموم إنما هو "ما يترتب عليها من نتائج"(٢)، والأفكار الصادقة هي تلك الأفكار التي نستطيع أن نستوعبها، ونتثبت من صحتها، ونؤكدها ونتحقق منها(٣)، وإذا كنا نحن في العادة نميز بين صدق القضية من حيث هي قول يكافئ فيه الإثبات الشيء المثبت، وبين مجموع العمليات التي لا بد من القيام بها من أجل امتلاك تلك الحقيقة أو من أجل التوصل إلى معرفة صحتها، فإن الفلسفة العملية مثل هذا التمييز، وتذهب إلى أن الحقيقة ليست مجموع تلك العمليات(٤).

ومن هنا أخذت الحقيقة شكلًا آخر غير المتعارف عليه بين الفلاسفة، حيث "جاء المذهب البراجماتي –أو المذهب العملي– في عصرنا الحديث، فغير النظرة إلى طبيعة المعرفة، بحيث لم يجعلها مجرد تصوير لعالم الواقع كما يظن الواقعيون، بل جعلها أداة للسلوك العملي،

(١) جيمس، وليم، معنى الحقيقة، ترجمة أحمد الأنصاري، ط المركز القومي للترجمة بالقاهرة، =الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م، صـ(٢١).

(٢) كوبلستون، فريديريك، تاريخ الفلسفة، (٨/ ٤٨٣).

(٣) ينظر: كوبلستون، فريديريك، تاريخ الفلسفة، (٨/ ٤٨٤).

(٤) جيمس، وليم، معنى الحقيقة، صـ(٢٠).

أي إن الفكرة من أفكارنا هي بمثابة خطة يمكن الاهتداء بها في القيام بعمل معين، والفكرة التي لا تهدي إلى عمل يمكن أداؤه ليست فكرة، بل ليست شيئًا على الإطلاق"[١].

والحقيقة عند "جيمس" هي التي تقود الفعل إلى النتائج العملية، "وهكذا يمكننا أن نقول بصفة عامة إننا نعرف أي موضوع من الموضوعات معرفة حقيقة حينما نقوم بالفعل، أو حينما نستطيع أن نقوم على الأقل بتحقيق تلك العمليات التي من شانها أن تنتقل بنا من تجربتنا الراهنة إلى تجربة أخرى جديدة، تأتي بنا مباشرة أمام الموضوع المراد معرفته[٢]، وعلى ذلك فإن الفكرة الحقيقية ليست بمثابة صورة مطابقة للشيء، بل هي بالأحرى عبارة عن فكرة من شأنها أن تقودنا إلى إدراك ذلك الشيء"[٣].

وذكر "جيمس" تعريفًا آخر للحقيقة يختلف عن التعريف السابق من بعض النواحي؛ إذ يقول إن القضية لا تكون صحيحة أو حقيقية إلا إذا كان في قبولها ما ينتهي إلى نتائج مرضية، فصدق القضية مرهون بما يترتب على التسليم بها من إرضاء لحاجات الفرد البشري، سواء كانت بسيطة أو معقدة[٤].

والحقيقة من منظور الفكر البراجماتي لا تتحقق إلا عند نجاح الفكرة، أو نفعها، وصدق الفرضية العملية من خلال التجربة، فالحقيقة عند البراجماتيين تتجلى فيها روح المنهج العملي الذي استمد أصوله من

(١) محمود، زكي نجيب (الدكتور)، نظرية المعرفة، ط وزارة الإرشاد القومي، الطبعة الأولى، ١٩٥٦م، صـ(٣٠).

(٢) راسل، برتراند، تاريخ الفلسفة الغربية، (٢/ ٤٧٩).

(٣) جيمس، وليم، معنى الحقيقة، صـ(١٧).

(٤) ينظر: إبراهيم، زكريا (الدكتور)، دراسات في الفلسفة المعاصرة، (٣٦).

"بيرس"، وحرص على بيان أهميته عند كل من "شيلر"، و"جون ديوي"، و"بابيني"؛ باعتبارهم من ممثلي الفلسفة العملية في كل من إنجلترا وأمريكا وإيطاليا على التعاقب(١).

لذا يحاول "جيمس" أن يصف النزعة العملية بأنها عبارة عن "الاتجاه الذي يصرف النظر عن الأمور الأولى، والمبادئ والمقولات والضرورات المفروضة؛ كي يتجه ببصره نحو الأمور النهائية، والآثار والنتائج والوقائع"(٢).

لهذا كانت الحقيقة هي مدار تفكير الفلاسفة البراجماتيين، من حيث إنها مقياس الأفكار، وبها يتحقق الغرض من الفعل، فالحقيقة هي إثبات، والإثبات عند البراجماتية معياره النفع المحقق من صحة الفكرة والحدث، وهكذا تكون الحقيقة هي التي تحقق الحقيقة العقلية والصورية بموافقتهما مع الواقع، والحقيقة هي مجمل الشروط والظروف التي تلائم الواقع العملي(٣).

فالفكرة التي تحيا في الذهن ولا تخرج إلى عمل –على تفسير "جيمس" للحقيقة–ليست من المعرفة بمعناها الصحيح، ولا تمت للحقيقة بصلة، فمقياس صواب الفكرة هو رسمها لطريقة إنجاز عمل معين، لذلك كانت الفكرة الصائبة هي الفكرة النافعة، وإذا لم يكن للفكرة المعينة أثرٌ عمليٌّ أو نفعٌ في حياة الإنسان، لم تكن جديرةً أن تسمى بالمعرفة أو الحقيقة(٤).

---

(١) شنيدر، هربرت، تاريخ الفلسفة الأمريكية، صـ(٣٣٩).

(٢) جيمس، وليم، البراجماتية، صـ(٥٤).

(٣) شنيدر، هربرت، تاريخ الفلسفة الأمريكية، صـ(٣٤٤)، وينظر أيضًا: كوبلستون، فريديريك، تاريخ الفلسفة، (٨/ ٤٨٥).

(٤) محمود، زكي نجيب، نظرية المعرفة، صـ(٣٢).

ومن هنا انطلق "وليم جيمس" في طرح أهم إشكالاته حول الحقيقة، فيقول: "إذا سلمنا بأن فكرةً أو معتقدًا صحيحٌ، فما هو الفارق الملموس الذي يحدثه كونه صحيحًا في الحياة الواقعية لأي امرئ؟، كيف تتحقق الحقيقة؟، ما هي الخبرات التي ستكون مختلفة عن تلك التي تحدث إذا كان المعتقد زائفًا وباطلًا؟، وباختصار ما هي القيمة الفورية للحق اختباريًّا وتجريبيًّا وممارسةً؟"(١).

والفكرة الصحيحة عند البراجماتيين: "هي تلك التي يمكن استيعابها، وتقبلها، وتعزيزها، والتحقق منها، أما الأفكار غير الصحيحة، فهي التي لا تحقق لنا الشروط السابقة"(٢).

ويستفاد من هذا أن الحقيقة عند البراجماتيين تعني الصدق العملي، فهو أداةٌ تُعرف بها الحقيقة، ويرى البراجماتيون أن الأفكار التي هي بفعل حادث هي التي يمكن إدراكها، فالاستدلال على صحتها وإثباتها هو ما يجعلها صادقة، ولا يجب اعتبار صدقها صفةً مرتبطةً ملازمةً لها، بل إن صدقها حادثٌ لها بعد أن قامت بتأكيد صلاحيتها، من هنا كان "صدقها في الحقيقة ليس إلا عملية إثبات صدقها أو إثبات تحققها، ولا تستمد صلاحيتها إلا من عملية تأكيد هذه الصلاحية"(٣).

وضُرب مثلٌ للتفرقة بين الحقيقة عند البراجماتيين وغيرهم بأنك لو وقفت عند مفترق الطرق، ورأيت النور الأحمر في مصباح المرور، ثم قلت: إني أعرف أن هذا اللون أحمر، فما معنى معرفتي هذه؟.

فعلى تفسير الواقعيين يكون معناها أن في الرأس صورةً للواقع – سواء كانت مطابقةً للواقع أو غيرَ مطابقةٍ–، أما البراجماتي فيقول إنها لا

(١) ديورانت، ول، قصة الفلسفة، صـ(٦١٨).
(٢) جيمس، وليم، البراجماتية، صـ(٢٣٦).
(٣) جيمس، وليم، معنى الحقيقة، صـ(١٧).

تكون حقيقة أو معرفة، إلا إذا هدتك إلى السلوك الذي تسلكه عند رؤيتك للون الأحمر، فتعرف أي الاتجاهات يجوز فيها السير وأيها يمتنع عنه، أما مجرد ارتسام صورة اللون الأحمر في الذهن فلا يعد عندهم معرفةً أو حقيقةً، فلا تكون الفكرة حقيقية على تفسيرهم إلا إذا كان فيها ما يدل على نوع السلوك النافع(١).

وقد توسع "جيمس" في فهم ما هو مفيد أو ناجح ليطبقه على مجالات متعددة من العلوم، ففي مجال التجربة الفيزيائية عرَّف المفيد بأنه ما يمكن من التنبؤ ومن العمل ومن التأثير والإنتاج، وفي مجال التجربة النفسانية أو العقلية ما هو مفيد للفكر، وما يزيد الشعور بالمعقولية، وهو شعور الراحة والسلام، وفي مجال التجربة الدينية يكون الاعتقاد حقًّا إذا نجح روحيًّا، ويعني به ما يحقق للنفس الطمأنينة، ويعينها على تحمل تجارب الحياة، وسما بالنفس عاليًا(٢).

يقول "وليم جيمس": "التطابق بالمعنى الأوسع للكلمة مع الواقع لا يمكن أن يكون غير واحد من اثنين: إما الوصول مباشرة إلى الواقع أو في قربه، أو هو الاتصال الفعلي بالواقع ابتغاء مزيد من التأثير فيه نفسه أو في وسيط، تأثيرًا أقوى مما تكون عليه الحال لو كان هناك خلاف، إضافةً إلى أن المقصود هو الفعل في الميدان العقلي والميدان العملي على السواء، وغالبًا ما يكون هذا الاتفاق هو مجرد هذه الواقعة السلبية، وهي ألا يصدر عن هذا الدافع شيء يناقض أفكارنا ويعترض طريقها الذي يفضي بنا إلى نقطة أخرى"(٣).

---

(١) ينظر: محمود، زكي نجيب، نظرية المعرفة، صـ(٣١)، ينظر: كوبلستون، فريديريك، تاريخ الفلسفة، (٨/ ٤٨٤).

(٢) شنيدر، هربرت، تاريخ الفلسفة الأمريكية، صـ(٣٤٥).

(٣) جيمس، وليم، البراجماتية، صـ(٢٣٧).

ويقرر "جيمس" بأن الأفكار التي يرتقب منها التوقع هي الأفكار الصحيحة في المجال الأولي من التحقيق، وأن السعي في طلب مثل هذه الأفكار هو واجب إنساني أولي، فحيازة الحقيقة أبعد ما تكون هنا عن كونها غاية في ذاتها، لا تزيد عن كونها وسيلة أو أداة أولية لبلوغ ضروب أخرى من الإشباع والرضا والسرور والحيوية(١).

والعالم عند "جيمس" ليس وحدة متماسكة، بل هو مجموعة من الأشياء التي تتطور وتتغير في صيرورة مستمرة وزمان حي متجدد، وإذا كان الرأي التقليدي القائم على فكرة الثبات يعرف الحقيقة على أساس تطابقها مع شيء موجود من ذي قبل، فإن "وليم جيمس" لا يرى في الحقيقة مجرد نسخة مطابقة لما كان أو ما هو كائن، بل إنه يرى أن الحقيقة تؤذن بما سيكون، أو هي على الأصح تعد فعلًا لما سوف يكون، وبعبارة أخرى فإنه إذا كانت الفلسفة التقليدية تميل إلى أن تجعل الحقيقة تنظر دائمًا إلى الخلف، فإن الفلسفة العملية تجعلها تنظر دائمًا إلى الأمام(٢).

ويؤكد "جيمس" أن الحقيقة الموضوعية لا وجود لها، ولا يمكن العثور عليها، وعند تأمل أقدم الحقائق فإنها كانت تسمى حقائق لأسباب إنسانية، أي لأنها كانت تشبع رغباتنا، والسبب في أننا نسمي الأشياء حقيقة هو السبب في أنها حقيقية، أي لأننا اعتبرناها كذلك بحسب تحقيقها لما نريده من أفعال، والحقيقة هي عملية والأفكار تصير حقيقة بتحقيقها لوظيفة مطلوبة في التجربة الإنسانية، وما هو حق يمكن أن يتغير، بل هو يتغير فعلًا كلما تغيرت حاجاتنا وما يشبع رغائبنا، وليس

(١) جيمس، وليم، معنى الحقيقة، صـ(٤٠).
(٢) جيمس، وليم، البراجماتية، صـ (٢٤٠).

لنا أبدًا أن نقيس الحق بأي مقياس آخر غير مقياس المنفعة في الحياة العملية(١).

وقد لخص "برجسون" مذهب "جيمس" في الحقيقة في المقدمة التي استهل بها الترجمة الفرنسية لكتاب البراجماتية لـ "وليم جيمس"، حيث قال: "بينما ترى المذاهب الأخرى أن أية حقيقة جديدة إن هي إلا اكتشاف ترى الفلسفة العملية أنها اختراع"(٢).

من هنا نرى أن الحقيقة في نظر "جيمس" ليست صفة ساكنة أو خاصية مستقرة في أية فكرة من الأفكار، بل هي أقرب ما تكون إلى حدث يعرض للفكرة فتصبح بمقتضاه صحيحةً، ولا تكون صحيحةً إلا إذا حققت المنفعة(٣).

ويضرب "يعقوب فام" مثالًا للتفرقة بين رأي "بيرس" و"وليم جيمس" في الحقيقة فيقول: "فليس معنى رنين الأجراس في محطة مصر مثلًا هو قيام القطار والسفر إلى الإسكندرية كما كان يزعم "بيرس"، وإنما تحرك القطار هو الدليل على حقيقة رنين الأجراس"(٤).

ويلاحظ من هذا أن الذي دفع "وليم جيمس" إلى تفسير الحقيقة يرجع إلى تأثره بالتجريبية، فقد دفعته دفعًا إلى جعل الحقيقة ضربًا من التحقق، كما هو الحال في العلوم المخبرية سواءً بسواءً، فالحقائق العلمية عند "جيمس" مجرد فروض يمكن التحقق من صحتها من خلال التجارب، وليست أشد النظريات العلمية احتمالًا وانسجامًا سوى مجرد فروض إلى

(١) شنيدر، هربرت، تاريخ الفلسفة الأمريكية، صـ (٣٥٠).
(٢) برجسون، هنري، مقدمة الترجمة الفرنسية لكتاب البراجماتية، صـ (٣).
(٣) مبير، ميشيل، الفلسفة الأنجلو سكسونية، صـ (٤٠٦).
(٤) فام، يعقوب، البراجماتية، صـ(١٥٠).

أن يتثبت من صحتها بالرجوع إلى وقائع ملاحظة[١]، فجعل "جيمس" الأفكار جزءًا من التجربة، وهي لا تصبح حقيقة إلا بقدر ما تعين على أن تكون علاقات مرضية جديدة مع أجزاء أخرى من التجربة، فالحقيقة إذن طابع ذرائعي –على حد تعبير "جون ديوي"–؛ لأن وظيفة الحقيقة تنحصر في الربط بين أجزاء تجربتنا ربطًا عمليًّا مرضيًّا ناجحًا[٢]، وهكذا يقرر "جيمس" أن صدق الأفكار إنما يعني قدرتها على العمل أو على أداء وظيفة[٣].

ومن المآخذ على تفسير "جيمس" للحقيقة أنه توسع في مفهوم الحقيقية، وقرنها بالنافع ليشمل أبعادًا روحية ووجدانية، مثل الاعتقاد بوجود إله إذا كان مفيدًا –أيًّا كان هذا الإله– طالما أنه يعود على العابد بالنفع، فهو عند "جيمس" غير مرفوض، بناء على ما قرره: "أنه ليس في وسعنا على أسس براجماتية، أن نرفض أي فرض إذا صدرت عنه نتائج نافعة للحياة"[٤]، ومثل هذه الأفكار لم يلق ترحابًا من المتدينين، بل إنها شنت هجومًا عليه من قبل الفلاسفة العقليين؛ مما دفع "جيمس" للاعتراف بعجزه عن تصوير مراده من الحقيقة في معناها الميتافيزيقي، وتعلل بأن اللغة لم تسعفه في ذلك، وقرر في النهاية عجزه عن إيجاد ردٍّ يستطيع به وقف الهجوم عليه.

ثالثًا: معنى الحقيقة عند "جون ديوي".

(١) ينظر: إبراهيم، زكريا (الدكتور)، دراسات في الفلسفة المعاصرة، (٣٣).
(٢) راسل، برتراند، تاريخ الفلسفة الغربية، (٢/ ٤٨٣).
(٣) شنيدر، هربرت، تاريخ الفلسفة الأمريكية، صـ(٣٥١).
(٤) جيمس، وليم، البراجماتية، صـ(٣١٧).

يرى "جون ديوي" أن وظيفة الفلسفة تكمن في كونها نقدية وبنائية، فهي تبنى من جديد من خلال النقد، ونقدية من حيث البناء الجديد(١)، وجوهر الفلسفة عنده أنها نظرية، ومن هذا المنطلق عاب "جون ديوي" على الفلسفات القديمة أنها فصلت التفكير عن تيار الخبرة الإنسانية، ونظرت إليه على أنه عملية ثابتة، فانتزعت التفكير من مجرى الحياة، وانتزعت معه صفة جوهرية لكل كائن حي هي أن يعيش في زمان، وانتقد أيضًا تسمية أوجه التفكير بصور بأسماء كثيرة مثل التصور، والحكم، والاستدلال، والتأمل، ويرى أن هذه المسميات إنما تدل على بحث أو نتيجة بحث، وأن البحث يشغل منزلة متوسطة في الخبرة، والإنسان باحث في كل خطواته في الحياة وفي كل مظهر من مظاهرها، ففي كل يوم يعيشه الناس يفحصون، ويقلبون الأمور على وجوهها فكرًا، ويستدلون ويحكمون بغية الوصول إلى الحقيقة(٢).

ويقرر ديوي أن الفيلسوف ينافس العالم على أرضه الخاصة، ويشدد بصورة طبعية على الفلسفة الأخلاقية والاجتماعية، وعلى فلسفة التربية، فالفيلسوف الباحث عن الحقيقة عند "ديوي" ليس مقيدًا بهذه الموضوعات على الإطلاق، ففلسفة الخبرة عند "ديوي" تضم داخلها كافة أوجه الخبرة البشرية، بما في ذلك العالم العلمي والديني والأخلاقي والجمالي والعالم الاجتماعي، فتبحث الخبرة عن العلاقات بين هذه الميادين المختلفة، ومهمة الفلسفة الجديدة أن توضح الحقائق، وأن تعبر عن أفكار الناس، ففلسفة الخبرة يلزمها أن تحل وتعالج الصراعات(٣).

(١) ينظر: كوبلستون، فريديريك، تاريخ الفلسفة، (٨/ ٥١٩).
(٢) ينظر: محمود، زكي نجيب، نظرية المعرفة، صـ(٣١).
(٣) ينظر: ديوي، جون، تجديد في الفلسفة، صـ(٢٦).

والإنسانُ عند "ديوي" باحثٌ بطبعه، دائبٌ عليه، لا يكاد يبدأ بحث مشكلةٍ وينتهي بها إلى نتيجة حتى يواجه مشكلةً أخرى في البحث، وعملية البحث التي يجريها الإنسان يتدخل فيها التفكير والخبرة والسياق والاتصال؛ لذلك يسمي مذهبه بأي اسم من هذه العمليات، مثل التجريبية نسبة إلى الخبرة، والسياقية نسبة إلى السياق، ومذهب العمليات العقلية نسبة إلى اتصال عمليات التفكر داخل الخبرة، وهذه كلها أدوات البحث والسلوك في الحياة، ومن ثم فقد سمى مذهبه بالأداتية(١)، وأنها التأثير الحقيقي للبناء الفلسفي الجديد، فاتجه "ديوي" إلى تحويل المنهج التجريبي من ميدان التجربة الفيزيائية إلى ميدان أوسع؛ ليشمل جميع الحقائق العلمية والاجتماعية والأخلاقية والدينية، والتربوية والسياسية، ويصر "ديوي" على ضرورة فحصٍ عقليٍّ للنتائج الفعلية لجميع العادات الموروثة، فشغل منطق الخبرة حيزًا كبيرًا من فكر "ديوي"، منطلقًا من المنهج التجريبي القائم على بناء جديد مُتروٍّ للتجربة(٢).

لقد استهل "جون ديوي" البحث عن الحقيقة بتحديد كيفية التفكير، ولماذا نفكر؟، ويستخدم لذلك منهجًا تكوينيًّا Genetic، والذي انتهى فيه إلى القول بأن الإنسان بدأ يفكر ابتغاء أن يعيش ويبقى في قيد الحياة، ويحسن أحواله المعيشية، ويقول: "إن التفكير يتبع الكفاح، والفعل يتبع التفكير"(٣).

وقد جعل "جون ديوي" من البحث عنوانًا لمذهبه في المنطق الجديد، فقد كان أصحاب المذاهب الأخرى يبحثون عن الحق الثابت الذي

(١) ينظر: الأهواني، أحمد فؤاد، جون ديوي (سلسلة نوابغ الفكر)، صـ(١٠٢).
(٢) ينظر: ديوي، جون، تجديد في الفلسفة، صـ(١٣٨).
(٣)ينظر: ديوي، جون، كيف نفكر؟، طبعة هيث- نيويورك، الولايات المتحدة، ١٩٣٣م، صـ(٢٣).

لا يتغير مهما كان زمانه أو مكانه، فعارض "ديوي" هذا الاتجاه، جاعلًا البحث بمعناه الاصطلاحي، لا "الحق الثابت" هو أساس العلم، وإذن فهو أساس المنطق، والبحث بالمعنى الاصطلاحي هو العمليات الموجهة التي يؤديها الإنسان ليحول موقفًا غير متعين إلى موقفٍ معينٍ، ومعنى ذلك أن الإنسان لا يأخذ في التفكير إلا إذا صادف موقفًا فيه إشكال يحدث التنافر بين عناصره، فيحاول أن يدخل فيه من التغيير والتحوير ما يزيل عنه ذلك التنافر، ويجعل منه موقفًا محدد المعالم موحد العناصر محلول الإشكال(١).

ويلاحظ أيضًا أن الحقيقة عند "ديوي" هي القابلة للتجربة، وقد عاب على التراث الفلسفي القديم المنحدر من زمن الإغريق حتى زمانه؛ لأنه استمر في تمسكه بنظرة التحقير من الخبرة، وأن يرفع من الحقائق التي لا يمكن معرفتها بالطرق التجريبية، حتى ولو كانت موضوعة في الأشياء المدركة بالتجربة، باعتبار أن تلك الحقائق هي الغاية الحقة والمثل الأعلى الصحيح للمعرفة الصادقة(٢).

والأفكار عند "ديوي" هي أدوات Inistruments تنجز بها بعض النتائج المرغوب فيها، فهي تساعد على أن نعمل شيئًا أو نفعله على وجه أفضل، أو أكثر ذكاءً، أو أقرب إلى النجاح خير مما لو كنا نعتمد على الغريزة أو الاندفاع وحدهما. "إن الأفكار لا تكون أفكارًا حقيقية إلا إذا كانت أدوات نستعين بها في حل المشاكل، والفكرة من الناحية المنطقية ليست إدراكًا شاحبًا لشيء ما، وليست مركبًا لعدد من الإحساسات، إن الرجل المتوحش قد يكون قادرًا على تكوين صورة عن الأعمدة والأسلاك،

(١) محمود، زكي نجيب، مقدمة ترجمته لكتاب المنطق نظرية البحث لجون ديوي، ط المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٠م، صـ(١٣).

(٢) ديوي، جون، البحث عن اليقين، صـ(٥٣).

ولكن إذا لم يعرف شيئًا عن التلغراف فلن تكون لديه فكرة أو على الأقل لن يكون فكرة صحيحة عن الأعمدة والأسلاك، ذلك أن الفكرة لا يمكن عقليًّا أن تحدد بتركيبها، وإنما تحدد فقط بفائدتها ووظيفتها، وفي المواقف المريبة أو غير المحددة ما يساعدنا على تكوين الحكم، وعلى الاستنتاج بواسطة استباق حل ممكن هو فكرة، وليس شيئًا آخر، إنها فكرةٌ بفضل ما تفعله من إيضاح مشكل أو التنسيق بين ما هو متناثر شذرات، لا بفضل تركيب طبعي"(١).

والخبرة كما يراها "ديوي" أمر يتعلق بالعمل، فلا خبرة دون عمل يهدف إلى تحقيق هدف، فهي أمر متصل بالعمل ومعاناة نتائجه، وهذه نظرة تقليدية عدت الخبرة أمرًا عمليًّا وليس معرفيًّا، إلا أن الجديد في فلسفة "ديوي" في الخبرة يوضحه قوله: "إن النظرية القديمة تتعرض للتبدل إذا فهمنا أن القيام بالعمل يمكن أن يكون على نحو يدخل فيه كل ما يوحي به العقل، بحيث تنشأ عن ذلك معرفة ممحصة، وحينئذ لا تعود الخبرة شيئًا اختباريًّا، بل تصبح شيئًا تجريبيًّا، ولا يعود العقل قوة بعيدة مثلى، بل يصبح وحده كل الوسائل التي تجعل الفعل مثمرًا في معناه"(٢).

ويشير "ديوي" إلى الموقف الجديد من الخبرة وعلاقة العقل بها؛ فيقول: "لقد ظهرت فلسفة جديدة للخبرة والمعرفة، وهي فلسفة تأبى أن تضع الخبرة في منزلة النقيض من المعرفة والتأويل العقليين، فلم تعد الخبرة مجرد تلخيص ما عملناه في الماضي على سبيل المصادفة، بل هي سيطرة متعمدة على ما نعمله من الأشياء، بحيث يصبح ما يحدث لنا

(١) ديوي، جون، كيف نفكر؟، صـ(١٣٣، ١٣٤).
(٢) ديوي، جون، الديمقراطية والتربية، صـ(٢٨٧).

منها وما نفعله نحن بها على أكثر ما يمكن من الخصب في المقترحات الجديدة –أي المعاني المقترحة–، وبحيث يصبح وسيلة لاختبار هذه المقترحات وتبين صحتها"(١).

ولقد تأثر "جون ديوي" بنظرية التطور، فظهرت أماراتها في تفسيره للخبرة، وهو من أشد المؤيدين لها(٢)، ويقرر بأن الخبرة كونها عملية سلوكية حيوية نشطة وذكية عند الإنسان تحمل مبادئ تنظيم ذاتها في ذاتها، يجعل أي تركيب صادر من فوق الطبيعة أو فوق التجربة أمرًا غير ضروري، ويؤكد أن هذا التنظيم هو الأساس وهو المادة اللازمانية لتطور الذكاء تطورًا إيجابيًّا، من حيث هو عامل منظم داخل الخبرة نفسها، وقد رأى "ديوي" أن الخبرة تحتوي على كل التفاعلات الفيزيائية والنفسية(٣).

لقد قامت فلسفة "ديوي" في الخبرة على أصداء نظرية التطور التي أحدثت ثورةً في مجال علوم الطبيعة، وهذا واضحٌ جليٌّ في أفكاره التي تأثر بها، كما تأثر أيضًا بمادية "هيجل"؛ مما جعل "ديوي" يصرح بأن فلسفته في الخبرة هي العلم الذي يحرر العقل من التقييد بأغراض محددة لتكوين أغراض جديدة، وأنها وسيلة التقدم في العمل والسيطرة على وسائله، ومن ثم إذا كانت الخبرة عنده عملية ذكية تهدف إلى التقدم والتغير المستمر، فقد أصبحت هي العلم، وأكد "ديوي" على هذا بقوله: "فالعلم إذن هو الخبرة بعد أن تصير معقولة(٤).

ويهدف "ديوي" من الخبرة أنها عندما تصبح حقة بكل ما تحمله من دلالة، فإنها ستكون حيوية بأعلى درجات الحيوية والنشاط، ولا يكون

(١) ديوي، جون، الديمقراطية والتربية، صـ(٢٨٤).
(٢) ديوي، جون، إعادة البناء في الفلسفة، صـ(٧٢).
(٣) ديوي، جون، تجديد في الفلسفة، صـ(١٦٤).
(٤) ينظر: ديوي، جون، الديمقراطية والتربية، صـ(٢٣٤).

معناها عندئذ انعزال المرء في نطاق مشاعره وأحاسيسه الخاصة، ويكون معناها اتصاله بالعلم اتصالًا فعالًا وواعيًا، وهي في ذروتها تعني تدخل الذات تداخلًا تامًّا مع عالم الموضوعات والأحداث(١)، ويقوم هذا التداخل على تدبرٍ واعٍ لاختيار أفضل الطرق لإخضاع وتغيير البيئة الطبيعية والاجتماعية بما يحقق حياةً أفضلَ(٢).

وينتهي "ديوي" إلى أن جميع الأفكار والمعتقدات والقيم لا بد أن تخضع للتجربة واختبار قابليتها للعمل، فالعمل هو دليل اختبار القيم، وما يتحصل عنها من منافع، فضمان بقائها واستحسانها في المجتمع يرجع إلى قيمتها النفعية، وصيانة القيم الفكرية ونشرها، والفضائل الأخلاقية والمبدعات الجمالية، وكذلك النظام والآداب في العلاقات الإنسانية، إنما يعتمد على ما يعمله الناس(٣).

ومن هنا تتلخص فلسفة "ديوي" في الحقائق والأفكار والقيم أنها ترجع إلى الخبرة العملية؛ ولهذا استخدم "جون ديوي" مصطلح أداتية Instrumentalism للدلالة على ما يسميه "الرواية المنطقية للبراجماتية" The Logical Version Of Pragmatism، ويفضل أن يسمي فلسفته بالأداتية بدلًا من البراجماتية(٤).

ومن خلال معنى الحقيقة عند مفكري البراجماتية يتضح المنهج الذي تقوم عليه البراجماتية.

المنهج البراجماتي:

(١) ديوي، جون، الفن خبرة، صـ(٣٥).

(٢) موريس، تشارليز، رواد الفلسفة البراجماتية، صـ(١٢٢).

(٣) ديوي، جون، البحث عن اليقين، صـ(٥٥).

(٤) ديوي، جون، إعادة البناء في الفلسفة، صـ(٧٢).

إن أول سمة من سمات المنهج البراجماتي نجدها مرتبطة بالقاعدة التي رسخها "تشارلز بيرس"، وهي: الأخذ بالنتائج العملية التي ندرك أن تفكيرنا قد يكون على علاقة بها، وعندئذ يكون إدراكنا لهذه النتائج هو كل مفهومنا عن هذا الموضوع، وقد اعتبرت هذه القاعدة أن النتائج هي مقياس صدق الفكرة أو بطلانها، وبالتالي عدها "بيرس" الأساس في الوصول إلى أقصى درجات الوضوح؛ لذا فهو لم يكتف بذكرها ذكرًا عابرًا، بل يعيد القول بها في أكثر من مكان بين كتاباته، فهو يقول: "لكي نتأكد من معنى أي مفهوم عقلي، يجب أن نأخذ بعين الاعتبار النتائج العملية التي يمكن أن تحصل بالضرورة من ذلك المفهوم، ومجموع تلك النتائج يشكل المعنى التام لذلك المفهوم"(١).

ويستنبط من هذا أن البراجماتية عبارة عن منهج فلسفي، ولم يتخذ فلاسفتها عند دخولهم مجال البحث الفلسفي طريقة فلسفية خاصة تجعل منهم بُناةً لمذهبٍ فلسفيٍّ متكاملٍ قائمٍ بذاته، لا يقبل الزيادة أو النقصان كما فعلت المثالية أو التجريبية، فالمعرفة من منظور البراجماتية معرفة محددة ونسبية قابلة للتغيير بتغير ظروف الإنسان، وقد عد جميع رواد البراجماتية أنها منهج وليس مذهبًا فلسفيًّا.

وإذا نظرنا إلى المنهج عند "جون ديوي" نجد أنه اختار المنهج التجريبي أو الطريقة التجريبية لتفسير الحقائق، فقوله بالخبرة العملية منهج تتوحد فيه العمليات الفكرية والنشاط النظري مع الإجراءات العملية أو النشاط العملي، والمنهج التجريبي عند "ديوي" سمة مميزة للبحث العلمي

(١) بيرس، تشارلز، مجموعة الأبحاث، (٥/ ٤٢٢).

المتطور، ويهدف إلى إعادة تشكيل وتغيير البحث في المسائل الميتافيزيقة وفق خطوات البحث العلمي التجريبي[١].

ويذكر "ديوي" أن منهجه في البحث العلمي قد أزال التعارض بين المعرفة والفعل، وبين النظر والعمل، فأصبحت المعرفة حسب تفسيره تتقدم إلى الأمام بواسطة العمل، والمنهج العلمي عند "ديوي" يتألف من جانبين متلازمين هما الجانب العقلي أو النظري والجانب العملي أو الإجرائي[٢]، وقد حدد "ديوي" ثلاثة شروط منطقية للجانب العقلي من المنهج العلمي، هي:

١- صفة المدركات النظرية من حيث هي فروض.

٢- أن لهذه الفروض مهمة توجيهية في رسم طريق المشاهدة، وفي التحويل العملي الذي نحول به آخر الأمر ما قد كان قائمًا أول الأمر من ظواهر.

٣- أن تلك الفروض إنما تختبر، وتراجع مراجعة متصلة على أساس النتائج التي تتمخض منها تلك الفروض عند تطبيقها على الوجود الفعلي[٣].

وفي دراسات المشكلات الاجتماعية نجد أن "جون ديوي" عد مشكلات البحث بأنها تصويرات عقلية خلال عملية البحث، نصور بها تلك المتاعب والصعاب العملية التي سبقت، وما ننتهي إليه من قرارات عقلية لا يمكن اختبارها وقبولها إلا بأدائنا لفعل ما ينصب على المواقف

(١) ديوي، جون، إعادة البناء في الفلسفة، صـ(٧٢).

(٢) موريس، تشارليز، رواد الفلسفة البراجماتية، صـ(١٨٥).

(٣) ديوي، جون، إعادة البناء في الفلسفة، صـ(٧٢).

الوجودية[١]، وأن المشكلات التي يعني بها البحث في الموضوعات الاجتماعية لو أريد لها أن تستوفي شروط المنهج العلمي فلا بد لها:

١- أن تنشأ عما يقع فعلًا من توترات اجتماعية وحاجات اجتماعية.

٢- أن تتحدد مادتها بالظروف التي هي وسائل مادية تؤدي إلى موقف موحد.

٣- أن تتعلق بفرض يكون بمثابة خطة وسياسة لحلٍّ فعليٍّ، نحل به الموقف الاجتماعي ذا العناصر المتضاربة[٢].

وما ينطبق على العلم عند "جون ديوي" ينطبق على القيم في التوجه نحو العمل، فالحكم العملي أصيل في القيم، والذي يوضح نوع الحكم ما له صلة بتوجيه العمل، فهو مفتاح لفهم علاقة القيم بتوجيه السلوك[٣].

ويخلص "ديوي" إلى إطلاق القاعدة التي تنص على أن "أحكام القيمة هي أحكامٌ عن شروط الأشياء المجربة ونتائجها، أحكامٌ عما يجب أن ينظم تكوين رغائبنا ومحبوباتنا ومتعنا، لأنَّ أيَّ شيءٍ يقرر مصير تكوينها سيحدد الطريق الأساسي لسلوكنا الشخصي والاجتماعي"[٤].

تعقيب:

إذا أمعنَّا النظر في نظرية "جيمس" في الحقيقة لوجدنا أن نزعة "بيرس" التجريبية هي التي دفعته إلى جعل الحقيقة ضربًا من التحقق، كما هو الحال في العلوم مثلًا، فالحقيقة عند البراجماتيين ترتكز على نتائج الأفكار والنفع المترتب عليها دون النظر إلى أصلها، ووجودها

(١) ينظر: كوبلستون، فريديريك، تاريخ الفلسفة، (٨/ ٥٢٥).

(٢) ديوي، جون، المنطق نظرية البحث، صـ(٧٥٨).

(٣) ديوي، جون، البحث عن اليقين، صـ(٢٩٠).

(٤) ديوي، جون، البحث عن اليقين، صـ(٢٩٣).

الذهني؛ والحقائق العلمية عند البراجماتيين ما هي إلا مجرد فروض يلزمها التحقق من صحتها عن طريق ملاحظة التجارب الجزئية، وليست أشد النظريات العلمية احتمالًا وانسجامًا سوى مجرد فروض، إلى أن يتثبت من صحتها بالرجوع إلى وقائع ملاحظة، وهكذا الحال بالنسبة إلى سائر التصورات والمعقولات، فلا وجود لها إلا إذا خضعت لحكم التجربة، حتى يتحقق من صحتها علميًّا.

كما ذهب البراجماتيون إلى أن ما اشترطوه على المعاني والتصورات والأفكار من ضرورة الخضوع للتجربة بأن هذا المنهج التجريبي الذي يقصدونه، وذلك للتمييز بين القضايا الصحيحة والقضايا الكاذبة؛ لأن الحقيقة عندهم "ليست سوى اسم الجنس الذي ينطبق على كافة أنواع الأفكار ذات القيمة العملية المحددة، متى نتحقق عمليًّا من تأثيره في مجال التجربة"(١)، وهذا ما عناه "وليم جيمس" حينما فسر الحقيقة بأنها لا تعني في مجال الأفكار والمعتقدات شيئًا آخر سوى ما تعنيه في مجال العلم؛ لذا تسمى تجريبية "وليم جيمس" بالتجريبية المتطرفة(٢).

ويلاحظ أن البراجماتيين ربطوا بين الحقيقة والمنفعة والنتائج، وجعلوا المنفعة المادية هي المحور الأساس الذي تدور حوله الحياة، ونسوا أن الحياة أيضًا إنما تقوم على أساس من الواجب لذات الواجب، والحق لذات الحق، والخير والمحبة والأخوة والتفاني، فأسمى عمل يقوم به الإنسان هو الذي يهدف إلى تقوية روابط المحبة بين البشر، وهذا ما عجز عن فهمه فلاسفة البراجماتية حين أقاموا العلاقات البشرية على المنافع العملية،

(١) جيمس، وليم، البراجماتية، صـ(٦٤).

(٢) ينظر: كوبلستون، فريديريك، تاريخ الفلسفة، (٨/ ٥٣٢).

فقطعوا الروابط بين الأفراد والجماعات، وذلك أن المصالح تختلف من فردٍ لآخر، ومن مجتمعٍ لآخر؛ مما يؤدي إلى التنازع والشقاق(١).

ولقد أثرت هذه الفلسفة في السياسة الأمريكية أسوأ تأثير في علاقتها مع الدول الأخرى؛ خصوصًا مع دول الشرق الأوسط، فتصبح مؤيدة لحكومة من الحكومات وتمسى معارضة لها لانتهاء المنفعة المطلوبة منها، وتقيم الدنيا إذا امتهنت كرامة فرد من بلادها، وتغض الطرف عن الأنهار الجارية من دماء المسلمين في بورما وغيرها؛ لأن تأييدهم لن يأتي عليها بالنفع، فسياستها مرهونةٌ بالنفع المؤكد المستمد من تطبيق الفلسفة البراجماتية، ففلسفتها هي فلسفة أمريكا قلبًا وقالبًا(٢).

ومما يترتب على تفسير البراجماتيين للحقيقة أننا لو كنا إزاء فكرتين يبدو عليهما التناقض أو الاختلاف، ثم وجدنا أن كلًّا منهما من حيث نتيجتها العملية كزميلتها سواء بسواء، حكمنا عليهما –حسب التفسير البراجماتي– بأنهما فكرتان متطابقتان، ومثال ذلك : أننا لو قلنا بأن طول هذه المنضدة متر، ثم قال آخر إن طولها ليس بمتر، بل هو أكثر من متر بمقدارٍ يتعذر قياسُه بآلات القياس المعروفة، فإن هذين القولين مختلفان، على التفسير الطبيعي للحقيقة، لكن على تفسير البراجماتية فإن القضيتين صحيحتان؛ لأنه عند تتبع النتائج يكون الحكم بالصواب؛ لأنك ستخضع المنضدة للقياس بأدوات القياس المعروفة لتجد أن طولها مترٌ،

(١) صالح، سعد الدين، (الدكتور)، التجربة الدينية في الفلسفة البراجماتية، حولية كلية أصول الدين بالزقازيق، العدد الثالث، يوليه، ١٩٩١م، صـ(٣٥).

(٢) الشنيطي، محمد فتحي،(الدكتور)، البراجماتية لوليم جيمس، مجلة تراث الإنسانية، العدد الثامن، أغسطس ١٩٦٣م، صـ(٦٢٨).

وإذن فالقولان عند البراجماتيين متساويان مهما ظهر في لفظهما من اختلاف[١].

كما أنَّ تفسيرَ الفكرة والحقيقة بنتيجتها أصبح سببًا في تعدُّدِ الحق، بل أصبح الحقُّ موضوعًا موضعَ السلعة المعروضة في السوق بقدر قيمتها، بما يدفع فيها بالفعل دون أن يكون لقيمتها الذاتية أدنى تقدير[٢]، وكذلك أدى هذا القول إلى رفض الحقيقة المطلقة، ويضرب "جيمس" مثالًا لرفض الحقيقة المطلقة، سواء تعلقت هذه الحقيقة بالأفكار أو المعتقدات أنها: "مثل أوراق النقد التي تصرف، ما دام لا يرفضها أحد، فالأفكار والمعتقدات ما تزال تصرف ما دام لا يتحداها أحد"[٣]، وهذا التحدي الذي يقصده هو التحدي القائم على معارضتها للمنفعة الشخصية، مع أن الحق مقرر بذاته، بصرف النظر عن العقل الذي يدركه أو التجربة التي تثبته[٤].

ومما يترتب على هذه النظرية أنَّ أية عبارة يتحدث بها دون أن تكون لها نتائج فعلية، أو منفعة محققة من الخبرة العملية، تكون هذه العبارة بلا معنى، ومثال ذلك أن القول بأن في المكان الفلاني كائنًا روحانيًّا لا يمكن أن تراه الأبصار، وليس هو بذي صوت تسمعه الآذان، ولا رائحة تشمها الأنوف، ولا يمكن أن يصدم بشيء صلب، أو يمس باليد، فعلى تفسير البراجماتيين للحقيقة فإن هذا القول كلام

(١) ينظر: محمود، زكي نجيب،(الدكتور)، نظرية المعرفة، صـ(٣٥).
(٢) ينظر: صالح، سعد الدين، (الدكتور)، التجربة الدينية في الفلسفة البراجماتية، صـ(٤١).
(٣) جيمس، وليم، البراجماتية، صـ(٢٤٥).
(٤) ينظر: كوبلستون، فريديريك، تاريخ الفلسفة، (٨/ ٥١٩).

أجوف لا قيمة له؛ لأنه لا يتضمن نتائج عملية يمكن أداؤها لاختبار هذا الكائن الروحاني(١).

وبناءً على هذا أنكر البراجماتيون وجود مخلوقات غير متجسدة مثل الملائكة في هيئتها الروحانية، ثم طبقوا ذلك أيضًا على مسألة وجود الله – تعالى–؛ لأنه حسب تفسيرهم للحقيقة وتطبيقها من خلال المنهج التجريبي، فإن هذا لم ولن يتحقق في الإله غير المتجسد، فالإله المنزه عن الجسمية والحلول والاتحاد والأعراض المحسوسة مثل المشمومات والمبصرات لا يمكنهم الاعتقاد به –حسب تفسير البراجماتيين للحقيقة–، ولا الإيمان بوجوده، أما بالنسبة لما يحققه هذا الإله من نفع للناس فإنهم يقرون به طالما أن أثره ظاهر في حياتهم، يقول "وليم جيمس": "وعبارة وجود الله على الرغم من أنني لن أحس لوجوده إحساسًا بواحدة من حواسي كالعين أو الأذن أو الأصابع، إلا أنها ذات معنى، ذلك لأن الاعتقاد عند الناس له آثاره الكثيرة في وجهة نظرهم إلى الحياة، فهو قد يسبب لهم التفاؤل والأمل، وغير ذلك مما يؤثر تأثيرًا مباشرًا في طريقة العيش التي يحيونها(٢).

وبالمثل فإنهم يقرون بالإلحاد لما يحققه من سعادةٍ عند أصحابه، كما أن ربط البراجماتيين الحقيقة بالمنفعة يؤدي إلى عدم التفرقة بين الحق والباطل، فقد تكون هناك عبارات مقطوع بكذبها وبطلانها وتكون صحيحة على مقياس البراجماتيين، فالقضية التي تقول: "إن الله ليس موجودا" – قضية باطلة وكاذبة، ومع ذلك فهي على مقياسهم صحيحة ونافعة

(١) ينظر: محمود، زكي نجيب، (الدكتور)، نظرية المعرفة، صـ(٣٦).
(٢) ينظر: كوبلستون، فريديريك، تاريخ الفلسفة، (٨/ ٥١٩).

ومفيدة؛ لأنها تحقق إشباعًا لشهوات صاحبها الوقتية، وتجعله يتصرف في حياته كما شاء، دون خوف من عقاب أو طمع في ثواب.

ومن النقد الموجه أيضًا إلى تفسير البراجماتيين للحقيقة، أن بعض المعارف لا يمكن تفسيرها بهذه النظرية تفسيرًا مقبولًا، ومثال ذلك أن القول بأن "كولومبس" قد عبر المحيط الأطلسي سنة ١٤٩٣م، فإذا أردنا أن نعرف صواب هذه القضية؛ فبناءً على التفسير البراجماتي ينبغي النظر في نتائج هذا القول لا في أسبابه، فإن وجدتها نتائج أدعى إلى السلوك الناجع والنفع المتحقق كان القول صحيحًا، لكن ما الفرق من حيث النتائج العملية بين من يقول ذلك، ومن يقول عن رحلة "كولومبس" أنها وقعت سنة ١٤٩١ أو سنة ١٤٩٣م؟، فمن العسير أن نتبين فرقًا في النتائج، اللهم إلا إذا كان القائل بالعبارة الأولى لو كان طالبًا في امتحان فإنه يجتاز امتحانه بنجاح، على خلاف القائل بالعبارة الثانية أو الثالثة[١].

ومن النقد الموجه أيضًا إلى الحقيقة من المنظور البراجماتي أننا لو جعلنا حسن النتائج المترتبة على الفكرة هو مقياس صدقها، لوجدنا عبارات مقطوعًا ببطلانها صحيحة على هذا المقياس، فإذا رأينا البرق يلمع في السماء، وتوقعنا سماع الرعد بعد ذلك، ثم سمعناه بالفعل؛ فإننا نقول إن توقعنا كان صوابًا، ليس لأن اعتقادنا بأننا سنسمع صوت الرعد سينفع أو لا ينفع في حياتنا اليومية، بل إن صواب الحكم راجع؛ لأنه اعتقاد مطابق لما وقع في العالم الخارجي، لا أكثر ولا أقل[٢].

ويلاحظ أيضًا أن كثيرًا من معلوماتنا في حياتنا اليومية يكون صوابًا أو خطأ، على الرغم من نفع الصواب في حياتنا أو عدم نفعه، فمعرفة أن

(١) ينظر: محمود، زكي نجيب (الدكتور)، نظرية المعرفة، صـ(٣٧، ٣٨).

(٢) ينظر: الطويل، توفيق (الدكتور)، مذهب المنفعة العامة في فلسفة الأخلاق، صـ(٢٧٧).

فلانًا يسكن في منزل معين، وأن الطائرة المتجهة إلى فرنسا تقلع من مطار القاهرة في الساعة كذا، وهكذا فكل هذه القضايا تكون معرفة صحيحة أو غير صحيحة لمطابقتها أو عدم مطابقتها للواقع، وبعد ذلك نتحقق من نفعها أو عدم نفعها، فالصواب والخطأ في مواضع كثيرة يتقرران قبل تتبع نتائج الفكرة لمعرفة نفعها أو ضررها، ولو كان عامل النفع العملي وحده هو مقياس صواب الفكرة، بل مقياس معناها وقابليتها للفهم –كما يقول البراجماتيون– لكان صواب أي فكرة من أفكارنا متوقفًا إلى حدٍّ كبيرٍ على قانون العقوبات، فالقوانين لا تكون رادعةً إلا عند تطبيقِها على المجرم، والأحكام والتشريعات والأوامر والنواهي لا وجود لها في التفسير البراجماتي للحقيقية، إلا عندما تشاهد ثمارها وتطبيقها بالفعل، وهذا يفقدها عنصر الزجر، وفيه إفساحٌ لِباب الإقدام على المخالفات التشريعية والقانونية، وهذا أمرٌ من الخطورة بمكانٍ على الفرد والمجتمع.

أما عن المنهج البراجماتي، فهو لا يصلح لحلِّ مشكلات الفكر، فهناك قضايا كثيرة هي حقٌّ في ذاتها، ومع ذلك ليس لها نتائج عملية، فلا يستطيع هذا المنهج أن يفصل فيها برأي؛ ولذلك توقف "جيمس" في مشكلة القدم والحدوث، فلم يقطع فيها برأي، وتوقف في كثيرٍ من المشكلات التي لا تعطي قيمة فورية، وعندئذ أصبح المنهج هروبًا من معالجة المشكلات وليس حلًّا لها، والغريب أن المنهج الذي أثمر التجربة الصوفية عند "جيمس" هو الذي أثمر الإلحاد عند "جون ديوي"، وأن المنهج الذي جعل "جيمس" يؤمن بثنائية الوجود[١]، هو الذي جعل "ديوي" يؤمن بأحادية الوجود، ولعل المثال الذي ضربه فيلسوف البراجماتية

(١) موريس، تشارليز، رواد الفلسفة البراجماتية، صـ(١٨٥).

الإيطالي "بابيني" بأن البراجماتية عبارةٌ عن ممرٍّ يربط بين الغرف؛ يعبر أصدقَ تعبيرٍ عن مدى تهافت المنهج البراجماتي[١].

***

(١) ينظر: صالح، سعد الدين (الدكتور)، التجربة الدينية في الفلسفة البراجماتية، صـ(٤٤).

المبحث الثالث
موقف البراجماتية من الميتافيزيقا

معنى الميتافيزيقا:

كلمة ميتافيزيقا مشتقة من مقطعين: ميتا– فيزيقا، وقد ظهرت كلمة ميتافيزيقا من الكلمة الإغريقية (Meta) التي تعني (ما وراء أو بعد)، وكلمة (Physika) وتعني (الطبيعة)، ويشير مصطلح ما وراء الطبيعة إلى العلوم المختلفة عن الطبيعة والمادة في كتابات "أرسطو" في العصور القديمة، وقد سماها –الميتافيزيقا– بالفلسفة الأولى(١)، وكان المقصود بكلمة (Meta) الإشارة إلى الفصول التالية لما كتبه في الفيزياء في المجموعة المحررة بعد وفاته، حتى إن "أرسطو" نفسه لم يطلق لفظ الميتافيزيقا على هذه الأعمال، بل إنه أطلق عليها لفظًا مغايرًا لهذه الأعمال وهو (الفلسفة الأولى)، وقد أرسى فيه قواعد هذا العلم، فموضوع الفلسفة الأولى عنده: "الوجود بما هو وجود"(٢)، أي مجردًا من حيث هو موجود دون تعيين أو تحديد(٣)، أو علم الوجود بما هو كذلك، واعتبرها أسمى دراسة عامة للوجود أو الحقيقة، وعدها متميزة عن العلوم الخاصة وأعمق منها(٤).

(١) صليبا، جميل (الدكتور)، المعجم الفلسفي، (٢/ ٣٠٠)، وينظر أيضًا: جماعة من فلاسفة الإنجليز المعاصرين، طبيعة الميتافيزيقا، ترجمة الدكتور كريم متى، طبعة عويدات للنسر، بيروت، لبنان، ٢٠١٨م، صـ(٨).

(٢) بو ملحم، علي (الدكتور)، نحو رؤية جديدة فيما وراء الطبيعة، ط دار المواسم، لبنان، ط الأولى ١٩٩٩م، صـ(٣).

(٣) زقزوق، محمود حمدي (الدكتور)، تمهيد للفلسفة، ط دار المعارف، القاهرة، ط٥، ١٩٩٤م، صـ(١٦٥).

(٤) جماعة من فلاسفة الإنجليز المعاصرين، طبيعة الميتافيزيقا، صـ(٩)، وينظر أيضًا، كرم، يوسف (الدكتور)، الطبيعة وما بعد الطبيعة، طبعة مؤسسة هنداوي، القاهرة، ط الأولى، ٢٠١٤م، صـ(٢٢).

لقد أطلق مفهوم ما بعد الطبيعة أو الميتافيزيقا على الفلسفة الأولى لأرسطو وأصبح عنوانًا عليها، وقد حدث ذلك في القرن الأول قبل الميلاد، فقد استخدم "أندرونيقوس" –أحد أتباع أرسطو– لفظ ميتافيزيقا عنوانًا لكتاب يضم مجموعة مباحث أرسطية تشمل الأمور العامة للوجود والألوهية رأس الوجود(١).

وقد اختلف مدلول هذا العلم باختلاف العصور، فموضوعه عند "أرسطو" والمَدْرَسِيّين مشتملٌ على البحث في الأمور الإلهية، والمبادئ الكلية، والعلل الأولى، وموضوعه عند المحدثين مقصورٌ على البحث في مشكلة الوجود، ومشكلة المعرفة(٢).

والميتافيزيقا بوصفها علمًا تطرح معتقد الفلاسفة في موضوعات ما بعد الطبيعة، مثل وجود الله وطبيعته، وخلود النفس، وطبيعة الحياة الآخرة، وسمات وخصائص عالم ما وراء الظواهر أو عالم اللامحسوس(٣).

وبعد هذه المقدمة عن الميتافيزيقا أنتقل الآن للحديث عن موقف رواد البراجماتية من الميتافيزيقا.

أولًا: موقف تشارليز بيرس من الميتافيزيقا.

لقد كانت مسائل الميتافيزيقا من أهم ما يشغل تفكير رواد البراجماتية، ودليل ذلك أنهم أطلقوا على هذا النادي اسم "النادي الميتافيزيقي"، ومنه انطلقت أفكار البراجماتية، يقول "بيرس": "إن "وليم

(١) زقزوق، محمود حمدي (الدكتور)، تمهيد للفلسفة، صـ(١٦٥)، وينظر أيضًا: محمود، زكي نجيب (الدكتور)، موقف من الميتافيزيقا، طبعة دار الشروق، القاهرة، ط الثالثة، ١٩٨٧م، صـ(٢٥).

(٢) صليبا، جميل (الدكتور)، المعجم الفلسفي، (٢/ ٣٠٢).

(٣) الخشت، محمد عثمان (الدكتور)، الدين والميتافيزيقا في فلسفة هيوم، صـ(٤٨)، وينظر أيضًا: ٨٤– دريدا، جاك، استراتيجية تفكيك الميتافيزيقا، ترجمة الدكتور/ عز الدين الخطابي، طبعة أفريقيا الشرق، المغرب، ٢٠١٣م، صـ(٥٢).

جيمس"، و"رايت"، كانوا ممن يهتمون بالعلم ويتفحصون أقوال الميتافيزيقا"[١].

ولم يكن إطلاق اسم "ميتافيزيقي" على النادي يمت بصلة إلى مصطلح "الميتافيزيقا"، أو للدلالة على اعتقادهم به، ولم يكن أعضاؤه ميتافيزيقيين كذلك، إنما كانت كلمة ميتافيزيقي في إطلاقهم تعني نوعًا من السخرية والتحدي للميتافيزيقا، وللتيار الهيجلي، الذي بدأ يتقهقر ويتراجع بعد سنة ١٨٧٠م[٢].

وعندما تحدث "بيرس" عن الميتافيزيقا فإنه تناولها بطريقة وضعية محكمة، ففي بحث عن البرجماتية، مثلا، يقرر أن البرجماتية تخدم في جلاء أن "كل قضية من قضايا الميتافيزيقا الأنطولوجية، تقريبا، إما أن تكون ثرثرة ليس لها معنى- أي كلمة تُعرِّفها كلمات أخرى، وتعرِّف هذه الكلمات كلمات أخرى، دون أن نصل إلى أي تصور حقيقي على الإطلاق، أو تكون خُلفًا صريحًا"[٣].

ويقرر "بيرس" أنه لكي تدرس الميتافيزيقا دراسة صحيحة فلا بد من أن تتخلص من تفسيرات اللاهوتيين لها، ولا يتم ذلك إلا ببحثها عن طريق مناهج العلوم الحقيقية التجريبية التي تعتمد على الملاحظة، وبهذا تكون برجماتية "بيرس" نوعًا من الوضعية، وكان "بيرس" دائمًا ما يسخر من الميتافيزيقا[٤].

ويذكر "بيرس" عددًا من التعريفات المختلفة أو الأوصاف المختلفة للميتافيزيقا، عندما لا يستعمل لفظ "الميتافيزيقا" استعمالًا سيئًا من قبل

(١) ميناند، لويس، النادي الميتافيزيقي، صـ(٢٢٦).
(٢) ماركوس، لودويج، الفلاسفة الأمريكيين، صـ(٥٥).
(٣) بيرس، تشارلز، مجموعة الأبحاث، (٥/ ٤٢٣).
(٤) ماركوس، لودويج، الفلاسفة الأمريكيين، صـ(٥٦).

اللاهوتيين، فالميتافيزيقا عندئذ "تكمن في نتائج القبول المطلق لمبادئ منطقية، لا بوصفها صحيحة بصورة منظمة، وإنما بوصفها حقائق عن الوجود"(١).

"ويؤكد أنه لما كانت الميتافيزيقا تنتج من قبول مبادئ منطقية من حيث إنها مبادئ للوجود، فلا بد أن ينظر إلى الكون على أنه يمتلك تفسيرا موحدًا، ويشدد "بيرس" في أحيان أخرى على الأساس الذي يقوم على الملاحظة للميتافيزيقا، "إن الميتافيزيقا–حتى الميتافيزيقا السيئة(٢)– تقوم بالفعل على الملاحظات، سواء أكانت عن وعي أم لا؟"(٣).

إن "بيرس" يرفض توسيع التجربة خارج حدود المعمل والبحوث التطبيقية العملية، فلا يدخل فيها التجارب غير المباشرة والتجارب الروحية، أو بمعنًى آخر إنه يرفض إرادة الاعتقاد، ويقول بالأفكار أو التجربة الكلية وليست الجزئية(٤).

فالميتافيزيقا عند "بيرس" لا بد أن تخضع للملاحظة والتجربة، وقد اختصر تعريفها بأنها: "هي علم الحقيقة"(٥)، فهي عندئذ لا تشمل الموجود بالفعل فحسب، بل إنها أيضًا تشمل الموجود الواقعي الذي يمكن أن يخضع للتجربة.

---

(١) بيرس، تشارلز، مجموعة الأبحاث، (١/ ٤٨٧).

(٢) يقصد "بيرس" بالميتافيزيقا السيئة الميتافيزيقا المفسرة بالطريقة اللاهوتية، أو التي تستند في تفسيرها إلى الدين، وذلك لاعتقاده أن اللاهوتيين قد تصرفوا في تفسير الميتافيزيقا لتحقيق أغراض شخصية أبعدتها عن معناها الحقيقي.

(٣) بيرس، تشارلز، مجموعة الأبحاث، (٦/ ٢).

(٤) شنيدر، هربرت، تاريخ الفلسفة الأمريكية، صـ(٣٤٣).

(٥) بيرس، تشارلز، مجموعة الأبحاث، (٥/ ٢١).

وبناء على هذا التفسير فإن "بيرس" يربط بين المقولات الأنطولوجية المهمة بالمقولات المنطقية الخاصة بالرتبة الأولى، وهي ما أطلق عليها رتبة الكيف(١)، وهي "فكرة ذلك الذي يكون من حيث هو كذلك، بصرف النظر عن أي شيء آخر"(٢)، ويقصد بها تفسير الميتافيزيقا تفسيرًا مجردًا دون النظر إلى خصائصها أو تجسدها، وهي خاصية لكونها سريعة الانتشار، وهي تمثل عنصر التفرد والأصالة، الذي يكون موجودًا في كل مكان وفي كل ظاهرة، ويفسر ذلك أننا يجب أن نتخيل الكون بأنفسنا مثلما ظهر لآدم أول مرة، وقبل أن يقوم بتمييز لهذا الكون وخصائصه(٣).

والرتبة الثانية أو المقولة الثانية، وهي الثنائية التي تشبه فكرة الثنائية المنطقية، ويعني بها أن الرتبة الثانية هي "تصور شيء على أنه نسبي بالنسبة لشيء آخر، أو تصور شيء على أنه يتفاعل مع شيء آخر"، ويمكن أن تسمى الرتبة الثانية بالواقعة، وهي الوجود أو الوجود الفعلي في تفسير آخر؛ "لأن الوجود الفعلي هو حالة الوجود الذي يوجد في مقابل وجود آخر"(٤)، وتسري هذه المقولة أيضا في الكون، مثلما يحدث من جهد ومقاومة، أو خير وشر، أو صحة ومرض، أو وجود وفناء، فالثنائية عندئذ متحققة.

والرتبة الثالثة، أو المقولة الثالثة، هي مقولة التوسط، ويفسرها "بيرس" بأنها تكون الوظيفة المتوسطة لعلامة بين الموضوع والتأويل، ومن الناحية الأنطولوجية تتوسط مقولة الرتبة الثالثة بين مقولة الرتبة الأولى

(١) ماركوس، لودويج، الفلاسفة الأمريكيين، صـ(٥٨).
(٢) بيرس، تشارلز، مجموعة الأبحاث، (٥/ ٦٦).
(٣) ماركوس، لودويج، الفلاسفة الأمريكيين، صـ(٥٩).
(٤) بيرس، تشارلز، مجموعة الأبحاث، (٤/ ٤٥٩).

"الكيف"، ومقولة الرتبة الثانية[١]، وعندئذ فإن هذه المقولات تدخل في عملية الاستمرار والانتظام، وتأخذ شكل قوانين ذات أنواع متعددة أو ذات درجات متنوعة، وهذه المقولات تجعل من الممكن الانتقال إلى ثلاث أفكار رئيسة في فلسفة "بيرس"؛ هي: الله والنفس والخلود[٢].

ويضرب بيرس لتلك المقولات الثلاث بشرارة النار التي تقع في برميل من البارود –منظورًا إليه على أنه مقولة أولى–، فإنه يسبب انفجارا –منظورا إليه على أنه مقولة ثانية–، وهو يفعل ذلك وفقا لقانون عقلي، – فيحقق عندئذ وظيفة متوسطة–، هذا بالإضافة إلى قانون الاطراد الذي يمكن من التنبؤ بأن وقائع المستقبل ذات الرتبة الثانية تأخذ طابعًا معينًا محددًا أو كيفًا محددًا، ومع ذلك تسري مقولة الرتبة الثالثة، بأشكالها المتنوعة، مثل مقولتي الرتبة الأولى والرتبة الثانية في الكون، ونستطيع أن نقول إن كل شيء في هذا الكون يتسق ويرتبط بكل شيء آخر[٣].

ويلاحظ أن هذه المقولات الثلاث تأثر بها "بيرس" من فلسفة "هيجل"، وقد اعترف "بيرس" أنه يتفق كثيرًا مع أقواله، لذا أطلق على "بيرس" أنه أحيا الهيجلية من جديد في صورة جديدة.

ويمكن تقسيم هذه المقولات وفق تفسير "بيرس" للميتافيزيقا إلى قوانين ضرورية ميتافيزيقية، والمقولات الأنطولوجية الثلاث يقابلها ثلاث حالات ميتافيزيقة مناظرة للوجود، فالكيف هو إمكان دائم للوجود، وهو إمكان واقعي، مستقل عن التجربة الذاتية، فالكيفية الأولى عند "بيرس" تقدم لنا الحالة الأولى للوجود، أعني الإمكان الواقعي، على الرغم من أن مفهوم الإمكان أكثر اتساعا من مفهوم الكيف بلا شك. وعلى نحو مماثل

(١) بيرس، تشارلز، مجموعة الأبحاث، (١/ ٤٨٢).

(٢) ماركوس، لودويج، الفلاسفة الأمريكيين، صـ(٥٧).

(٣) ينظر: كوبلستون، فريدريك، تاريخ الفلسفة الحديثة، صـ(٨/ ٤٦٢).

تقدم لنا المقولة الثانية من حيث إنها من وجهة نظر مقولة الوجود الفعلي، الحالة الثانية للوجود أعني الوجود الفعلي من حيث إنه يتميز عن الإمكان، كما أن المقولة الثالثة باحتوائها على مفهوم القانون تقدم لنا الحالة الثالثة للوجود، التي يسميها "بيرس" بالمصير أو العادة، وكثيرًا ما يستخدم "بيرس" هذا اللفظ أكثر من استخدامه للفظ القانون، فالعادة عنده أكثر استعمالًا من القانون؛ لأنه يرتبط بالحتمية(١).

وبناءً على هذه المقولات الأنطولوجية الثلاث فإن "بيرس" يفسر الميتافيزيقا بثلاث حالات ميتافيزيقة أو مقولات للوجود الفعلي، هي: الحالة الأولى: وهي ما يسميها بالمصادفة، وهي لفظ استخدم كي يعبر بدقة عن خصائص الحرية أو التلقائية(٢).

الحالة الثانية من حالات الوجود هي القانون، والقوانين ذات أنواع متعددة، لكن الوجود كله حسب تفسير "جيمس" هو نتيجة للتطور(٣).

والصدفة المطلقة في تفسير "بيرس" هي الحالة البدائية للكون، وأنها تفسير للتطور، والتطور عنده يعني أيضًا اكتشاف غاية محددة، وهي ما فسرها بالعلة الغائية(٤)، والقول بالصدفة اعتبره "بيرس" "النظرية الوحيدة المعقولة عن الكون –وهو ما قالت به المثالية الموضوعية–، التي ترى المادة ذهنًا فعالًا، وتصبح العادات الراسخة المتأصلة قوانين فيزيائية"(٥).

أما الحالة الثالثة من حالات الوجود فهي العادة، أو الميل إلى تكوين عادة، ومع ذلك يجب أن تفهم كلمة العادة، بمعنى واسع؛ لأن كل

(١) ينظر: كوبلستون، فريدريك، تاريخ الفلسفة الحديثة، صـ(٨/ ٤٦٣).
(٢) بيرس، تشارلز، مجموعة الأبحاث، (٦/ ٢٠١).
(٣) بيرس، تشارلز، مجموعة الأبحاث، (١/ ٤٠٩).
(٤) موريس، تشارليز، رواد الفلسفة البراجماتية، صـ(١٢٨).
(٥) بيرس، تشارلز، مجموعة الأبحاث، (٦/ ٢٥).

الأشياء– كما يرى "بيرس"– تمتلك ميلًا إلى ترسيخ عادات، سواء أكانت موجودات بشرية، أم حيوانات، أم نباتات، أم جواهر كيميائية، والقوانين التي تقرر اطرادات أو ألوانا من الانتظام هي نتاج لفترات طويلة من تكوين هذه العادة، فالكون عند "بيرس" مجموعة ملتصقة من العادات التي تجعله يعمل بدرجة عالية من الاطراد الآلي.

ويلاحظ بعد هذا العرض لتفسير "بيرس" للميتافيزيقا أن الشواهد الكونية والحجج لم تؤد إلى وصوله إلى الاعتراف بالله الصانع لهذا الكون، لكنه عندما يتحدث عن الاستغراق في التأمل، من حيث إنه نشاط للذهن فإن ذلك يؤدي به مباشرة إلى الله، فالغريزة عنده أكثر فاعلية من أي حجة أخرى للإيمان بالله، ويطلق "بيرس" على الحجج الثلاث (الصدفة، والمحبة، والاستمرار) الحجج المهملة، أو الحجة المتواضعة، وأحيانًا يضعها تحت عنوان الاستغراق، لكن موقفه جليٌّ في الاعتقاد بالتطور والصدفة والاطراد، وهذه القوانين تتعارض مع الدين، بل إنها الباب الأكبر للإلحاد في العصر الحديث(١).

ويلاحظ من هذا أن تفسير "بيرس" للميتافيزيقا لا يخرج عن تصوره للحقيقة، وعلى أساسها بنى مذهبه، فلكي يتيقن المرء من معنى تصور ذهني يجب عليه أن ينظر إلى النتائج العملية التي قد تنتج فيما يمكن أن يتصوره بالضرورة من صدق ذلك التصور، ويشكل مجموع هذه النتائج المعنى الكلى للتصور بها(٢).

ولقد أكد "بيرس" في مقالته الشهيرة "كيف نوضح أفكارنا"؟ أن "ماهية الاعتقاد هي تكوين عادة، وتتميز الاعتقادات المختلفة عن طريق

(١) ماركوس، لودويج، الفلاسفة الأمريكيين، صـ(٦٠).
(٢) كوبلستون، فريدريك، تاريخ الفلسفة الحديثة، صـ(٨/ ٤٤٧).

الحالات المختلفة للفعل الذي تحدثه، وإذا لم يكن هناك فرق على الإطلاق بين طرفي السلوك أو الفعل الذي يحدثه للوهلة الأولى اعتقادان مختلفان– كأن يكون أحدهما صوابًا، والآخر خطأً من وجهة نظر الناس–، فإنهما لا يكونان اعتقادين اثنين، بل يكونان اعتقادًا واحدًا"(١).

ويفسر "بيرس" هذه الفكرة على الاختلاف بين الكاثوليك والبروتستانت فيما يخص القربان المقدس، فكل منهما يؤدي شعيرة العشاء الرباني، لكن لما كان لا يوجد اختلاف في الفعل أو في السلوك بين الطرفين –حسب رأيه–، فإنه لا يكون هناك اختلاف حقيقي في الاعتقاد، وعلى الرغم من اختلاف طقوس هذه الشعيرة بين الكنيستين، فالكاثوليك يقومون بالركوع أمام القربان المقدس، والصلاة أمام المعبد الذي حفظ فيه القربان المقدس، إلخ، بينما لم يفعل البروتستانت شيئًا من ذلك حقيقة، لكنهم اتفقوا على أن البروتستانت لديهم نفس التوقعات من جهة الآثار المحسوسة للقربان المقدس؛ لأن كلا الطرفين يتوقع مثلا –بصرف النظر عن اعتقاداتهما اللاهوتية– أن فناء الخبز المقدس له نفس الآثار الطبيعية مثل فناء الخبز غير المقدس، فالكاثوليكي الذي يؤمن بأن الخبز والنبيذ يتحولان في جسم الآكل والشارب إلى جسد المسيح ودمه، لا ينكر أنه بعد تقديس نوع الخبز، سيكون له نفس الآثار المحسوسة مثل الخبز غير المقدس(٢).

وتنطبق فكرة "بيرس" أيضًا على من قدم الصلوات لوثن أو إله متجسد، ومن أدى الصلاة لله – تعالى–، فالأديان عند "بيرس" كلها سواء؛ لأنه ينظر إليها من الناحية العملية فيما ينعكس على العابد من راحة

(١) بيرس، تشارلز، مجموعة الأبحاث، (٥/ ٣٩٨).
(٢) كوبلستون، فريدريك، تاريخ الفلسفة الحديثة، (٨/ ٤٥٣).

نفسية، أو شعور باللذة، وهذا مجافٍ للواقع، فكيف يسوي بين من تقرب إلى وثن، أو بقر، أو أدنى من ذلك، أو أكبر، وبين الموحد لله –تعالى–، بحجة الاعتماد على النتائج العملية للعبادة وما يتحقق بعدها من راحة للعابد، دون النظر إلى أحقية المعبود بالعبادة من عدمه، وهذا من الخطورة بمكان.

معنى إرادة الاعتقاد عند تشارليز بيرس:

ذكر "بيرس" في مقالة له عن تثبيت الاعتقاد أن خير الوسائل لهذا التثبيت هي المنهج العلمي الذي من شأنه أن يجعل صواب ما يعتقده الإنسان أمرًا يشاهده كل الناس، فتخرج الفكرة من مجرد كونها اعتقادًا ذاتيًّا عند أحد الأفراد لنجعلها حقًّا عامًّا للناس جميعًا، وبحيث يأتي تطبيقها في كل حالة على صورة واحدة، وبذا يكون لها معنى واحدٌ عند الناس جميعًا، ولا يتغير معناها بتغير الأفراد أو الشعوب أو المكان أو الزمان، وهذه هي العريقة التي يتفاهم بها العلماء، ويقول "بيرس": "إننا لو استطعنا أن ننشئ "مجتمعا معمليًّا" أي مجتمعًا يتم التفاهم فيه على النحو الذي يتم عليه بين العلماء في المعمل، لانتهينا إلى معنى الحق من غير منازع أو خلاف"(١).

وحقيقة الاعتقاد عند "بيرس" أن المرء يبدأ دائمًا بأفكار مسبقة أو مسلمات، ومهمة العقل هي أن يقوم بتصفية المعتقدات التي يبدأ بها المرء ونقدها وبلورتها، ولما لم يكن من الممكن أن يكون المرء مخطئًا في جميع معتقداته، فليس هناك اعتقاد يمكن ألا يكون زائفا، وما ينطبق على موقف الإنسان الشخصي، ينطبق أيضًا على البحث العلمي، ويطلق "بيرس" على هذه الطبيعية الإنسانية المعرَّضة دائما للخطأ اسم

(١) بيرس، تشارلز، مجموعة الأبحاث، (٥/ ٣٩٩).

"اللامعصومية" Fallibilism، "وهو مبدأ أن المقترحات المتعلقة بالمعرفة التجريبية يمكن قبولها على الرغم من أنها لا يمكن إثباتها على وجه اليقين"(١).

ويقرر "بيرس" أن علومنا القاصرة يعتمد بعضها على البعض الآخر، كما تقوم جميعًا على مبادئ ليست علمية في حد ذاتها، وهذه المبادئ نستمدها من المنطق والأخلاق وعلم الجمال، وهذا العلم الأخير ينبغي أن يقدم لنا المثل الأعلى للحياة، أما المنطق فعليه أن يقدم لها مبادئ البحث، ويؤلف الإنسان بها المثل الأعلى العقلي، أو علم الأخلاق، والثلاثة (علم الجمال، والمنطق، وعلم الأخلاق) تزودنا بالقدرة على التحكم في العلم وبتوجيه يرشدنا إلى "الخير الأسمى" Summum Bonum، الذي يفسر بأنه أعلى مستوى جيد، وخاصة باعتباره الهدف النهائي الذي يتم بموجبه تحديد القيم والأولويات في النظام الأخلاقي(٢).

وذهب "بيرس" إلى أن جملة مثل الله موجود ذات معنى، وعلق صدق ذلك على ما تحققه الجملة من نتائج، فوجود الله يستحيل بالطبع إثباته إذا احتكم الإنسان إلى خبراته العملية، لأنه لا يرى ولا يسمع ولا يمس، وإذن فلا يجوز أن يكون ذلك طريق إثباته، ومع ذلك فهناك طريق غير مباشر على إثبات المعنى لهذه الجملة إذا رجع الإنسان في

---

(١) وهذا أصل النص المترجم لبيان "مصطلح اللامعصومية "**Fallibilism**" كما وردت في قاموس أكسفورد: " **the highest good, especially as the ultimate goal according to which values and priorities are established in an ethical system**."، أنجيوس، ستيفن،**Angus, Stevenson**، قاموس أكسفورد، مطبوعات جامعة أكسفورد، لندن، ٢٠١٥م، صـ٦٣٠.

(٢) وهذا هو أصل النص المترجم لبيان "مصطلح الخير الأسمى"**Summum Bonum** " كما وردت في قاموس اكسفورد: " **the highest good, especially as the ultimate goal according to which values and priorities are established in an ethical system**."، صـ(١٤٤٤)، وينظر أيضًا، نارانج، جوبي تشاند**Gopi Chand:Narang**، "غالب: المعاني المبتكرة والعقل البارع" " **Ghalib: Innovative Meanings and the Ingenious Mind**"، مطبوعات جامعة أكسفورد، بالاشتراك مع نيوديلهي بالهند، ٢٠١٧م، صـ(٣٦٠).

ذلك إلى النتائج العامة التي تحدث في وجهة نظر المؤمن بصدقها، لا إلى النتائج الحسية، فالذي يؤمن بأن الله موجود يختلف شعوره وسلوكه في حياته عمن لا يؤمن بذلك، فتراه مثلًا متفائلًا قوي الرجاء، وبالتالي فهو مستبشر بحياته فرح مطمئن، على خلاف زميله المنكر، إذ يغلب عليه التشاؤم، وانقباض النفس، وانعدام الرجاء، ومن هنا يقرر بيرس أن الآثار المترتبة على أن الله موجود وما يتحقق فيه من اختلاف بين المؤمن وغيره كفيلٌ أن يجعل للجملة معنى لما لها من نتائج(١).

وبهذا نخلص إلى أن موقف المؤسس الأول للبراجماتية "تشارلز بيرس" من الميتافيزيقا مرتبطٌ ارتباطًا وثيقًا لتفسيره للحقيقة، وما يتعلق بها من مشكلة المعنى، فالاعتقاد عنده هو الاعتقاد بصحة فكرةٍ ما، فهي أقرب أن يكون تصديقًا على صحة المعنى، وأساس الاعتقاد عنده يرجع إلى إقامة أو تكوين عادة معينة؛ بحيث يشعر الإنسان بوجودها، وبحيث يستطيع أن يمارسها فعلًا أو إمكانًا، وأن يكون على استعدادٍ للقيام بما تقتضيه من عمل، وأن الإنسان كي يتمسك بمعتقد من المعتقدات فلا بد من اختباره، ووضعه على محك التجربة العملية، وأن هذا الاعتقاد لا تتحقق صحته عند "بيرس" إلا بما يحققه من نتيجة حقيقية.

ويستنتج من هذا أن البراجماتية ومنذ الوهلة الأولي بقيادة "بيرس" ثورة ضد الميتافيزيقا، فبوضعه النتائج العملية المباشرة التي يتم التحقق منها عبر التجربة الموضوعية المباشرة معيارًا للصدق أو الكذب – أو بمعنى آخر– معيارًا لمعنى أي فكرة أو قضية، يكون قد استبعد القضايا الميتافيزيقية من إطار المشكلات ذات المعنى، وذلك بواقع أن

(١) ينظر: محمود، زكي نجيب (الدكتور)، حياة الفكر في العالم الجديد، صـ(١٣٦).

القضايا الميتافيزيقية هي تلك القضايا التي لا يمكن التحقق من نتائجها العملية بشكل مباشر، فهي غير قابلة للتحقق التجريبي(١).

ثانيًا: موقف وليم جيمس من الميتافيزيقا.

يرى "وليم جيمس" أنه ليس من الممكن أن نصل إلى تعريف دقيق لكلمة (ميتافيزيقا)، وأفضل سبيل عنده للإلمام بمعناها هو أن نذكر بعض المشكلات التي تتصدى لها، فالميتافيزيقا عند "جيمس" تعنى بمناقشة مسائل متنوعة غامضة مجردة عامة، تثيرها العلوم والحياة في عمومها دون أن تجد لها حلا، وقد تُرِكتْ هذه المسائل جانبًا كما هي، وهي مسائلُ كلٌّ منها واسعٌ عميقٌ، ومتصلٌ بالأشياء في جملتها أو بالعناصر النهائية لها(٢).

(١) ينظر: كولينز، جيمس، الله في الفلسفة الحديثة، ترجمة فؤاد كامل، ط دار قباء، القاهرة، ١٩٩٨م، صـ(٤٢٧).

(٢) جيمس، وليم، بعض مشكلات الفلسفة، صـ(٣٣).

ثم عرض وليم جيمس بعض النماذج لمسائل الميتافيزيقا، مثل:

ما هي الأفكار؟، وما هي الأشياء؟، وكيف يكون الاتصال بينها؟، ماذا نعني حين نقول الحقيقة؟، أهناك خامة مشتركة تصنع منها جميع الوقائع؟، كيف كان هنالك عالم؟، وهل كان ممكنا أن لا يكون هنالك عالم؟، ما هو النوع الحقيقي للحقيقة الواقعية؟، ما الذي يربط الأشياء جميعا في عالم واحد؟، هل الوحدة أم التعدد أشد جوهرية؟، هل للأشياء جميعًا أصل واحد أم أصول كثيرة؟، هل كل شيء مقدور، أم أن بعض الأشياء – إرادتنا مثلًا – حرة؟، هل العالم لا متناهٍ أم متناهٍ في جملته؟، هل أجزاؤه متصلة أم أن هناك فراغًا؟، ما الله؟، كيف يتحد الذهن والبدن؟، وهل يؤثر كل منهما في الآخر؟، كيف يؤثر شيء ما في شيء آخر؟، كيف يتغير شيء أو ينمو من شيء آخر؟، هل المكان والزمان من الموجودات أم ماذا؟، وفي المعرفة: كيف ينفذ الموضوع إلى الذهن؟، أو كيف ينفذ الذهن إلى الموضوع؟ وهل عندما تتم لنا المعرفة بواسطة الأفكار العامة، فهل هذه الأفكار حقيقية أيضًا، أو أن الأشياء الجزئية وحدها هي الحقيقية؟[١].

ويقرر "جيمس" أن هذه عينات للموضوعات التي تسمى بالموضوعات الميتافيزيقية، وقد أجملها "كانط" في ثلاثة أسئلة جوهرية، هي: ماذا يمكنني أن أعرف؟، وماذا ينبغي عليَّ فعله؟، وماذا عساي أن آمل؟[٢].

(١) جيمس، وليم، بعض مشكلات الفلسفة، صـ(٣٣).

(٢) ينظر: كانط، إيمانويل، تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق، ترجمة الدكتور/ عبد الغفار مكاوي، منشورات الجمل، كولونيا، ألمانيا، ط الأولى، ٢٠٠٢م، صـ(٤٧)،وينظر له أيضًا: مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة، ترجمة نازلي إسماعيل، ومحمد فتحي الشنيطي، طبعة موفم للنشر، الجزائر، ١٩٩١م، صـ(٨٧).

وارتضى "جيمس" تعريف "كرستيان وولف"[١] للميتافيزيقا بأنها: "العلم بما هو ممكن"، ليميزها عن العلم بما هو قائم بالفعل، وذلك لأن أغلب المسائل تصل بالواقع الحاصل، "وقد يذهب المرء إلى أن الميتافيزيقا تبحث في علة الأشياء كلها، وجوهرها، ومعناها، ونتائجها[٢].

وعرف "جيمس" الميتافيزيقا بأنها: "العلم بأعم المبادئ المنصبة على الحقيقة الواقعية –سواء أكانت هذه المبادئ قد جرت عليها تجاربنا أم لم تجر–، في صلتها بين الواحد منها والآخر، وبينها وبين ملكاتنا في المعرفة[٣].

والميتافيزيقا في فلسفة "جيمس" تعني الدين، حيث فسره بأنه "ما هو فوق الطبيعية"[٤].

ويقسم "وليم جيمس" الفلاسفة حسب تاريخ الميتافيزيقا إلى: عقليين وحسيين، ويستشهد في ذلك "بمقولة لكوليريدج"[٥]، وهي أن كل إنسان يولد إما أفلاطونيا أو أرسطيا، ويعني د كوليريدج، بالأرسطي أي التجريبي، وبالأفلاطوني العقلي.

---

(١) كريستيان وولف: (١٦٧٩ – ١٧٥٤م)، من كبار الفلاسفة الألمان في عصر التنوير، ومن أنصار المذهب العقلي، وكان أستاذًا للرياضيات، وكان يعتقد أن للمذهب العقلي أصولًا منطقية خالصة لا نزاع بصددها.

(٢) جيمس، وليم، بعض مشكلات الفلسفة، صـ(٣٥).

(٣) جيمس، وليم، بعض مشكلات الفلسفة، صـ(٣٥).

(٤) جيمس، وليم، العقل والدين، صـ(١٢٧).

(٥) صموئيل تيلر تيلر كوليريدج S T Coleidge (١٧٧٢ – ١٨٣٩م) من أعلام الشعراء في إنجلترا في القرن التاسع عشر، يميل في فلسفته إلى المثالية، وكان من أوائل الكتاب الذين نقلوا أفكار الفلسفة المثالية الألمانية إلى إنجلترا، وكان له أثر كبير ونفوذ على أتباع المثالية في أمريكا، من مؤلفاته التي تحمل الطابع الفلسفي: "السيرة الأدبية"، ودعوة إلى التأمل، واعترافات نفس باحثة.

فالعقليون أصحاب مبادئ، والتجريبيون أصحاب وقائع، ولما كانت المبادئ كلية والوقائع جزئية، كان الأفضل في وصف هذين الاتجاهين القول بأن التفكير العقلي يمضي من الكل إلى الأجزاء، بينما التفكير التجريبي يسير من الأجزاء إلى الكل، ويفضل العقليون أن يستخلصوا الوقائع من المبادئ، ويؤثر التجريبيون تفسير المبادئ باستقرائها من الوقائع(١).

ويطرح "جيمس" سؤالًا: هل الفكر في خدمة الحياة؟ أم الحياة في خدمة الفكر؟.

والجواب على ذلك يختلف بحسب المدرستين، فالتجريبيون مالوا إلى الفرض الأول، والعقليون مالوا إلى الفرض الثاني، "والله في نظر "أرسطو" و"هيجل" نظرية خالصة، والمذهب العقلي مذهب إعجاب وإشادة، فنظرياته متفائلة عادة، تسند عالم التجربة بصروح مثالية صافية نقية، ويعد "أفلاطون" و"أرسطو" والمدرسيون و"ديكارت" و"إسبينوزا" و"ليبنيز" و"كانط" نماذج لهذا النحو من التفكير، فهم يتوخَّوْن الغائية المطلقة لمذاهبهم، ويعتقدون أن الحقيقة الخالدة تعطر جوانب هذا البناء الهندسي النبيل الجميل"(٢).

بينما ينكر أصحاب المذاهب التجريبية هذا الرأي الذي يتجه إلى الغائية، فهم يتبعون في بناء مذاهبهم التجريبية على "الوقائع الراسخة"(٣)، ويتشككون في النتائج التي يتوصلون إليها في تطبيقهم لهذا المنهج، كما أن التجريبيين يستهدفون الدقة في التفاصيل أكثر من استهدافهم للاستكمال، فيعكفون على دراسة الجزئيات وجمعها، ويغلب على فكرهم

(١) جيمس، وليم، بعض مشكلات الفلسفة، صـ(٣٧، ٣٨).
(٢) جيمس، وليم، بعض مشكلات الفلسفة، صـ(٣٨).
(٣) موريس، تشارليز، رواد الفلسفة البراجماتية، صـ(١٣٠).

الطابع العلمي بالمعنى الواسع للمصطلح، ويعد "سقراط"، و"جون لوك"، و"باركلى"، و"ديفيد هيوم"، و"جون ستيورات مل"، و"جون ديوي"، و"شيلر" و"هنري برجسون"، و"وليم جيمس" من الفلاسفة التجريبيين(١).

"إن هذه المذاهب الحيوية لا تحفل بتبرير العلم والميتافيزيقا نظريًّا، ولا تغار على مبادئ العلم غيرة" كانط"، ولكنها تستمسك مثله بالمعاني الميتافيزيقية، وترمي مثله إلي تحقيقها بالفعل، وإقامة الإيمان بها على أساس منفعتها العملية"(٢).

وبعض الفلاسفة مالوا إلى دمج النزعة العقلية بالنزعة التجريبية، مثل "كانط"، و"جوزايا رويس"(٣).

ويلاحظ أن البراجماتية طبقت منهجها التجريبي على قضايا الميتافيزيقا، فلا بد عند الاعتراف بالميتافيزيقا أن تكون لها نتائج عملية، فمعنى صدق أي عبارة يكمن في النتائج، وبالتحديد في نتائجه الناجحة أو الحسنة، ولذا استحقت البراجماتية أن يطلق عليها بالمعنى الواسع لقب "المذهب الإنساني"(٤).

ويقرر "وليم جيمس" أنه يجب الاعتراف أن البراجماتية كما تصورها المذهب الإنساني تنسجم مع الذاتية، فتتفق مع الجانب اللاأدري من المذهب الكانطي، ومع اللاأدرية المعاصرة والمثالية عمومًا، وحين تقوم بذلك تكون مجرد نظرية ميتافيزيقية عن الواقع، تحلق بعيدًا عن التحليل المتواضع الذي تقوم به لطبيعة المعرفة ووظيفتها، والتي لا يتفق تحليلها مع تفسير المذهب الإنساني للواقع، فمن مزايا البراجماتية –حسب رؤية

(١) جيمس، وليم، بعض مشكلات الفلسفة، صـ(٣٩).
(٢) كرم، يوسف (الدكتور)، تاريخ الفلسفة الحديثة، صـ(٤٤١).
(٣) جيمس، وليم، بعض مشكلات الفلسفة، صـ(٣٩).
(٤) جيمس، وليم، معنى الحقيقة، صـ(١٤٥).

"جيمس"- أنها نظرية معرفية إلى أقصى درجة تفترض وجود الوقائع، ولكنها لا تناقش تكوينها أو تحكم عليها مسبقًا، وتستطيع المذاهب الميتافيزيقية المختلفة اتخاذها كأساس لها، وليس لها صلة خاصة بالذاتية أو بالمذهب المثالي الذاتي(١).

موقف وليم جيمس من الدين:

لقد ارتبط موقف "جيمس" من الدين بتفسيره لإرادة الاعتقاد، فتعارضت رؤية "وليم جيمس" للدين مع منهج أصحاب الدين، وكذا مع الفلسفات التي تؤمن بأن الدين موصل إلي حقائق يقينية، وكان على رأس هؤلاء علماء الدين وأساتذة اللاهوت المدرسيون، ومن بعدهم الهيجليون الجدد في إنجلترا في العصر الحديث، ليلبسوا الدين ثوبًا عقليًّا، فوصف "جيمس" محاولاتهم بالفشل، وتأتي معالجة "وليم جيمس" للمشكلة الدينية انطلاقا من وجهة نظر الحاجات الإنسانية نفسها، فما يكون صميم الدين بالنسبة لـ "وليم" هو الشعور الديني أو العاطفة الدينية، فليست العبرة بالطقوس والفرائض، بل العبرة بالروح والديانة الشخصية الباطنة(٢).

فالدين عند "جيمس" مجرد أمر شخصي في جوهره، فليس المهم بالنسبة له أن نعرف الأسس النظرية التي تقوم عليها عقائده، بل المهم الثمار والنتائج المترتبة على قبولنا به، والدين عند "جيمس" لفظ عام يشمل كل ما هو وثيق الصلة بالحياة؛ لأن كلًّا منا يحيا وفقا لمزاجه الديني، سواء كان معتقده صحيحًا أم فاسدًا، وهذا ما أطلق عليه التجريبية الدينية المتطرفة(٣).

(١) ينظر: جيمس، وليم، معنى الحقيقة، صـ(١٤٥).

(٢) ينظر: بترو، إيميل، الدين والعلم في الفلسفة المعاصرة، صـ(٢٣٩).

(٣) كرم، يوسف (الدكتور)، تاريخ الفلسفة الحديثة، صـ(٤٢٠).

إن تجريبية "جيمس" المتطرفة جعلت الواقعة الجوهرية للدين هي التجربة الدينية التي يمارسها الإنسان، بحيث إنه لا يهتم مطلقًا بنوع التجربة أيًّا كان نوع هذا الدين، فما يهم "جيمس" هو ما يتمخض من نتائج ذات نفع وفائدة عن هذه التجربة.

وتطبيقًا لمنهج "جيمس" التجريبي في أمر الدين، نجد أنه يفرق بين معنى فكرة الله وحقيقتها، ذلك أن معناها البراجماتي يتألف من النتائج العينية التي تولدها في وجهة نظر المؤمن الفردي وفي سلوكه، "وأوجز تعبير لهذا المعنى هو القول بأن بعض المخاوف قد تلاشت من الآن فصاعدًا، وحين يعبر "جيمس" بأن الله موجود، فإن كل ما ينطوي عليه هذا القول هو أن الأغراض قد أصبحت موضوع عناية"(١).

وقد امتدح "جون ديوي" نظرية إرادة الاعتقاد عند "جيمس"، قائلًا: "وهكذا أدخل "وليم جيمس" في اعتباره دوافع الميل الغريزي التي تلعب في اختيارنا لهذا المذهب الفلسفي أو ذاك دورًا أهم من الدور الذي يلعبه الاستدلال الصوري"(٢).

وفي المقابل نجد أن "برتراند راسل" انتقد موقف "وليم جيمس" من إرادة الاعتقاد، حيث يقول: "والأخيرة أي إرادة الاعتقاد بوجه خاص تلوح لي مستهدفة تزويدنا بدفاع مقبول في ظاهره، ولكنه سفسطائي عن بعض العقائد الدينية، وهو فضلًا عن ذلك لا يسع مؤمنًا أن يتقبله بجميع قلبه"(٣).

لقد تأثر "وليم جيمس" في تفسيره للميتافيزيقا وللدين بدراساته في علم النفس، والتي صارت فيما بعد أساسًا ودعامة متينة للتجريبية المتطرفة في

(١) كولينز، جيمس، الله في الفلسفة الحديثة، صـ(٤٢٥).
(٢) ديوي، جون، نمو البراجماتية، صـ(٢٣٩).
(٣) راسل، برتراند، تاريخ الفلسفة الغربية، صـ(٣/ ٤٦٩).

ميدان الميتافيزيقا ونظرية المعرفة، ففيما أثر عليه في ذلك تلكم القاعدة التي تقرر أن العلاقات التي يتصورها فكرنا بين وقائع الحس الخام وتقوم في التجربة المباشرة، قيام الوقائع الخام ذاتها، وبناء علي ذلك فإن مقولات الذهن البشري، والتي اكتسبت شهرة في تاريخ الفلسفة، وهي مقولات عقلية، لا وجود لها في نظر التجريبية الأصلية الخاصة بـ "وليم جيمس"(١).

"وقد كان "وليم جيمس" بوصفه دارسًا للطب والفسيولوجيا نصيرًا قلقًا للموقف المادي والنفعي، وقد دفعه إلى اتخاذ هذا الموقف ما لمسه من قصور في الحجج الألوهية التي تمسكت بها مدرسة الموقف الطبيعي الأسكتلندية وهي التي جددت سيطرتها على الحياة الأمريكية حتى ظهور مذهب التطور، كما دفعه إلى هذا الموقف ذلك المزيج العجيب الذي كان يعتنقه والده من دين "سويندنبورج"، ومن مذهب التعالي الأمريكي...، وجعلته قراءته لـ "بوشنر" و"سبنسر" متشككًا في أدلة وجود الله القائمة على العلية والتصميم، وكان يرى مثله في ذلك مثل "دولباك" والملحدين الطبيعيين- أن في الاندماج العلمي للمادة والقوة دليلًا على الاكتفاء الذاتي للعالم"(٢).

إضافة إلى أن "جيمس" جعل تفسير الميتافيزيقا مرتبطًا بما يتفق مع الاتجاه النفعي، يقول "جيمس": "تعود طريقة البراجماتي في إدراك الأشياء في نشأتها إلى الانهيار الذي حدث في السنوات الخمسين الأخيرة في المفاهيم العلمية القديمة للحقيقة، كان يقال بأن الله عالم رياضي، وتعبر مبادئ "إقليدس" بشكل ظاهري عن هندسته، ويوجد عقل ثابت أبدي

(١) الشنيطي، محمد فتحي (الدكتور)، وليم جيمس، صـ(١٠٣).

(٢) كولينز، جيمس، الله في الفلسفة الحديثة، ترجمة فؤاد كامل، ط دار قباء، القاهرة، ١٩٩٨م، صـ(٤٢١).

يفترض أن صوته يتردد في الضروب المنطقية، كذلك كان يفترض أن قوانين الطبيعة المادية والكيمائية وكذلك تصنيفات التاريخ الطبيعي، عبارة عن نسخ دقيقة مدفونة في بناء الأشياء قبل بدء البشرية، وتمكننا البصيرة الإلهية الكامنة في أذهاننا من إدراكها، وكان يفترض أن قوانين الطبيعة المادية والكيميائية، وأصبحنا نسمع الآن أن القوانين العلمية بات ينظر إليها كتصورات مختصرة لا يتمثل صدقها إلا في مدى نفعها، وليس أكثر من ذلك"(١).

ثالثًا: موقف جون ديوي من الميتافيزيقا.

لقد انتهى "جون ديوي" إلى فلسفته الخاصة التي تشترك مع براجماتية "تشارلز بيرس" و"وليم جيمس" في الأصول، واختلفت عنها في الفروع، وهي ما اصطلح عليه عند "ديوي" بـ"الوسيلية" أو "الأداتية" أو "الذرائعية"، وأنها سميت بهذه الأسماء لأنها تعتبر الأفكار وسائل وأدوات وذرائع يتكيف بها الإنسان مع محيطه، وهي خطط ومشروعات للعمل، يقاس مدى نجاحها وفاعليتها بمقدار ما تؤدي إليه من تحقيق أغراض الكائن البشري، في التكيف والتوازن والملاءمة مع بيئته الاجتماعية والمادية، وذلك باعتمادها عنصري الذكاء والخبرة في إمكان إقامة علاقات أكثر فاعلية ونفعًا مع الأشياء في المستقبل(٢).

فالأداتية أو الذرائعية عند "ديوي" "محاولة لتكوين نظرية منطقية دقيقة عن التصورات، والأحكام، والاستدلالات في صورها المتنوعة عن طريق النظر، إلى كيف يعمل التفكير في التحديدات التجريبية لنتائج مستقبلية"(٣).

---

(١) جيمس، وليم، معنى الحقيقة، صـ(٦١).

(٢) ديوي، جون، نمو البراجماتية الأمريكية، صـ(٢٤٧).

(٣) ريونيز، د. د، ، فلاسفة القرن العشرين، طبعة نيويورك، ١٩٤٣م، ، .(٤/ ٤٦٣).

فأصبحت الخبرة عند "جون ديوي" مصطلحًا مركزيًّا بالنظر إلى الاهتمام الواسع الذي أولاه الفيلسوف لتطبيق فكرة الخبرة على مجالات عديدة مست المنطق، والتربية والسياسة، والفن، والأخلاق، وغيرها، ولهذا كانت فلسفته فلسفة الخبرة، الخبرة التي يعيشها الإنسان، ومن هنا حظي "ديوي" على لقب "فيلسوف الخبرة"(١).

وانبثق من مفهوم الخبرة معنى خاص كان له أثر كبير في تفسيره للحقيقة وهو مصطلح "التجربة"، ويعنى به "ملاحظة الظواهر الطبيعية، في شروط معينة يهيئها بنفسه ويتصرف فيها بإرادته، ففي كل تجربة ملاحظة، إلا أن الفارق الوحيد بينهما أن الملاحظ يشاهد الظاهرة كما هي عليه في الطبيعة، في حين أن المجرِّب يشاهدها في ظروف يهيئها بنفسه، وغايته من ذلك الوصول إلى قانون يعلل به حوادث الطبيعة"(٢).

والتجريبية من الناحية الإبستمولوجية عند "ديوي" هي مقابلة ومعارضة للتيارات الفلسفية القائلة بفطرية المعرفة واحتواء العقل على مبادئ أولية لا تعود في شيء من مصادرها إلى التجربة، ولقد شاع المعنى في فلسفة "ديوي" حتى أصبح مهيمنًا وذائعا؛ نتيجة محاولة الاحتذاء بالنزعة العلمية في شكلها التجريبي، ووفق هذا المعنى ظهرت تيارات ومذاهب عززت بفكرة التجريب والتجريبية، على اعتبار أن الفكرة موجودة في السابق، ولكنها شكلت وصيغت وفقًا لنتائج العلم الحديث الذي غير كثيرًا من النظريات والمبادئ المعتمدة سابقًا، فصار العلم المعاصر ومعه المنهج المتبع –أي التجريبي– نموذجًا يجب اتباعه والتمسك به؛ لأنه السبيل الوحيد لمعرفة العالم معرفة حقيقية تزيد من سيطرة الإنسان

(١) رسل، برتراند، تاريخ الفلسفة الغربية، (٣/ ٤٧٦).
(٢) صليبا، جميل، المعجم الفلسفي، (١/ ٢٤٤).

على الطبيعة، وتمكنه من امتلاك وسائل هذه السيطرة التي أثبت المنهج التجريبي صلاحيته في إمداد الإنسان بها، وانطلاقًا من هذا الفهم للتجريبية نجد أن المنهج عند "ديوي" غالبًا ما يوصف بـ"الطبيعية التجريبية" "Empirical Naturalism"[١].

وقد حصر "ديوي" طرق المعرفة، والميتافيزيقا في المنهج التجريبي، فلا مجال لمعرفتهما إلا بالعقل، وهنا يتساءل: هل نحن بحاجة إلى عقل خارجٍ عن نطاق الخبرة وسامٍ عليها، ليزودنا بمبادئ أكيدة نهتدي بها في حياتنا العملية ونسترشد بها في سلوكنا؟[٢].

ومن هنا يرفض "ديوي" العقل السامي أي المفروض من الخارج؛ لأن "ديوي" لا يريد أن يقابل الخبرة بالعقل، وإنما فكرته هي إيجاد تكامل بينهما، فلا جدوى من الحديث عن خبرة دون عقل، أو عقل من دون خبرة، **ويمكن تصور هذا العقل عند "ديوي" بأنه:**

أولًا: يجب أن يكون العقل في نطاق الخبرة، فالعقل الخارجي مرفوض، ولا بد ،ن يدرج العقل كعنصر مساعد في تحصيل الخبرة وتدعيمها ليس إلا، وهذا حفاظًا على التدليل المنطقي الذي يوجبه تماسك الفكر واتساقه، ويرى "ديوي" أن الذكاء له وظيفة داخل الطبيعة، على حين أن العقل يعمل من الخارج ويقف موقف المتفرج، وهذا الموقف يمنعه من الاشتراك في توجيه الحوادث وتغييرها[٣].

ثانيًا: إن العقل ليس هيئة مفارقة تشرف على توجيه شؤون المرء الفكرية والسلوكية من عالٍ، وإنما يتدخل كجزء مهم في هذا العالم، وعليه

(١) ديوي، جون، الخبرة والتربية، صـ(١٧).

(٢) ديوي، جون، تجديد في الفلسفة، صـ(١٦٥).

(٣)الأهواني، أحمد فؤاد (الدكتور)، مقدمة ترجمته لكتاب البحث عن اليقين لجون ديوي، صـ(١٦).

فهو خاضع للحركة وليس للثبات، وعن هذا التصور يقول "ديوي": "لم يعد العقل مجرد مشاهد يطل على العالم من الخارج، ويجد ذروة رضاه في متعة التأمل المكتفي بذاته، فالعقل في داخل العالم كجزء متكامل ملتحم في سبيل العالم الماضي قدما على نحو موصول[١]، وهو يتميز كعقل بحقيقة أنه أينما يوجد يحدث التغيرات بطريقة موجهة في اتجاه واحد، محدد من الغامض والمجهول والمضبب والمشكوك فيه، إلى الواضح والمعلوم والمؤكد والمستقر"[٢].

اتجه "ديوي" إلى تفسير الميتافيزيقا عن طريق التجربة، معتمدًا في ذلك على العقل بما يلاحظه من مدركات حسية، "فالعقل والاتجاه العقلي هو استعداد ناتج وليس شيئًا معدًّا من قبل يمكن أن نثيره ونحركه عند اللزوم، والإنسان الذي ينمي ذكاءه تنمية بارعة إنما يوسع من حياته ولا يضيق منها، بالدوافع القوية هادفًا إلى اتفاق حدوثها في العمل"[٣].

ويعتبر "ديوي" العادات مكونًا مهمًّا يدخل في تكوين الخبرة، وأنها يرتكز عليها فهم الميتافيزيقا، فهي تتدخل في تشكيل الخبرة وإنمائها بكيفية تبتعد عن النظر إليها، وكونها تكرارًا آليًّا للأفعال والسلوكيات، ذلك أنه عند تفسيرها بهذا المعنى لا يجعلها إلا متحجرًا متزايدًا لطرائق معينة من السلوك خلال التكرار، يصاحبه إضعاف للمناشط السلوكية الأخرى"[٤]، والعادات هي العامل الرئيس في النشاط الإنساني، وتتشكل في أغلبها

(١) موريس، تشارليز، رواد الفلسفة البراجماتية، صـ(١٨٨).

(٢) ديوي، جون، تجديد في الفلسفة، صـ(١٦٧)، وينظر أيضًا، وين، رالف، قاموس جون ديوي للتربية، مختارات من مؤلفاته، صـ(١٤٨).

(٣) ديوي، جون، الطبيعة البشرية والسلوك الإنساني، صـ(٢١٥).

(٤) ديوي، جون، المنطق نظرية البحث، صـ(١٠٠).

جراء تأثير عرف الجماعة"[١]، فتظهر في المجتمعات بعض العادات والمعتقدات التي تحاط عادة بالسرية، بسبب أسبقية المجتمع وتأثيره على الفرد فتحدد وجهته، وهذا معناه عند "ديوي" أن الفرد وقع في ميتافيزيقا لا معنى لها، ويعتبر المفكرون الأحرار أن العادة رجعية محافظة بالضرورة، وليس نتيجة لنوع التقاليد السائدة، وفي الحقيقة لا تكون العادة رجعية محافظة أكثر منها تقدمية؛ إلا في المجتمعات التي تسيطر عليها أساليب الاعتقاد والإعجاب التي حددتها التقاليد السابقة[٢].

ومن هنا يقرر "ديوي" أهمية الذكاء، وأن له دورًا مهمًّا يساعد العادة في تكونها وتعديل مسلكها، فعندئذٍ يصبح سلوكها هادفًا واعيًا بأغراض التكيف والتوازن التي ينشدها الكائن، مراعيًا فيها أيسر الطرق وأنجح الوسائل الممكنة في تحقيق النتائج، ومن هنا جاءت أهمية المنطق، فقام على إصلاحه، وأحل عليه المنطق الاستقرائي، ويعتبر "ديوي" أن منشأ المنطق هو الخبرة، حيث يقول: "المنطق قائم على الخبرة بنفس الطريقة التي يكون بها أي علم طبيعي قائمًا على الخبرة، فهو متميز بهذا مما يكون تأمليًّا صرفًا ومتميزًا كذلك، عما هو قبلي وحدسي"[٣]، فأصبح المنطق عند "ديوي" هو نظرية البحث[٤].

ويرى "ديوي" أن التجارب العملية الناتجة عن استخدام المنطق التجريبي أنهت ما ساد من اعتقادات ميتافيزيقية طبعت وشحنت العلم القديم بالبحث عن علل مطلقة، متعالية باطنية كانت أم خارجية، وتم على

(١) ديوي، جون، الجمهور ومشكلاته، طبعة شيكاغو، الولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٥٤، صـ(١٥٩).

(٢) ينظر: ديوي، جون، الطبيعة البشرية والسلوك، صـ(٨٨).

(٣) ديوي، جون، تجديد في الفلسفة، صـ(٢٣١)، وينظر: المنطق نظرية البحث، صـ(١١١).

(٤) ديوي، جون، المنطق نظرية البحث، صـ(١٩٢).

أساسه استبدال الفهم الميتافيزيقي التقليدي للظواهر الطبيعية بفهم وضعي حديث، كما اصطلح عليه عند "أوجست كونت" بالوضعية، هذا الفهم الذي يعتني ببحث الخصائص الميكانيكية للظاهرة والملاحظة وصياغتها صياغة رياضية، تدل على إمكان التكافؤ التام أو تجانس انتقال الظواهر المختلفة من صيغة إلى أخرى(١).

لقد كان ديوي على وعي تام بأن نظريته الأداتية أو الذرائعية تعارض الحقائق الأزلية التي لا تتغير، فهو يقصد عن عمد هذا التعارض، فينظر إلى الحقائق الأزلية التي لا تتغير على أنها تتضمن ميتافيزيقا معينة، أو تفسيرًا للواقع، والذي يعني التمييز بين المجال الظاهري للصيرورة، ومجال الوجود الكامل والثابت، الذي يفهم في صورة حقيقية أزلية، وتختلف هذه الميتافيزيقا بكل تأكيد عن نزعة "ديوي" الطبيعية، ولذلك فإنه يصور ما يسمى بالحقائق الثابتة بأنها أدوات وسائل للتطبيق في معرفة عالم الصيرورة، وأن هذه الأدوات تظهر قيمتها باستمرار بالاستعمال، أو بمعنى آخر أن دلالتها هي دلالة وظيفية وليست أنطولوجية، فليس عند ديوي صدق مقدس، بل هناك بعض الحقائق التي لها قيمة ووظيفة دائمًا في الممارسة(٢).

ويعلن "ديوي" في جلاء أنه ليست هناك حقائق مقدسة، فجميع الحقائق لا بد أن تخضع لاختبار نتائجها؛ حيث يقول: "فلنعمم الإقرار بأن ما هو صادق يعني المتحقق، ولا شيء آخر يفرض على الناس مسئولية الإذعان لمعتقدات دينية وسياسية وأخلاقية، والخضوع لاختبار نتائج أحكامها المقدسة"(٣).

(١) ديوي، جون، البحث عن اليقين، صـ(١١٧).
(٢) كوبلستون، فريدريك، تاريخ الفلسفة، صـ(٥٢٧).
(٣) ديوي، جون، تجديد في الفلسفة، صـ(١٦٠).

يتضح من هذا أن "ديوي" يرفض الميتافيزيقا باعتبار أنها تجاوزت ما هو تجريبي، وأنها تجاوزت العالم الحسي، فـ "ديوي" يصر على أن "النظر العام في الوجود يمكن أن يستطيع بمفرده أن يحدد الميتافيزيقا بأي معنى معقول من الناحية التجريبية، هو نفسه حقيقة مضافة من التفاعل، ويخضع بالتالي لطلب الذكاء، مثل أي حدوث طبيعي آخر، أعني بحثًا في صلات ما يكتشفه، ومقدماته ونتائجه، إن الكون ليس سلسلة لامتناهية ممثلة لذاتها؛ لأن إضافة تمثل بداخله يجعله كونًا مختلفًا"(١).

وإذا كانت الميتافيزيقا تعني الوجود أو الأنطولوجيا فإن اكتشافاتها عند "ديوي" يصبح فروضًا تعمل، وتخضع كثيرا للمراجعة مثل فروض العلم الفيزيائي، ففروض وجود العالم لا بد من خضوعها للتجربة عند "ديوي"، وهنا يظهر تأثر "ديوي" بأفكار "هيجل"، وأنه يميل إلى تفسير المذاهب الفلسفية الماضية من جهة الثقافات التي أحدثتها، "وتساعدنا النقطة الثانية هذه على تفسير الواقعة التي تقول: "إنه عندما عالج "ديوي" مذاهب الماضي، لم تقلقه الحجج التي قدمها أصحابها دفاعًا عنها إلا بدرجة قليلة جدًّا، إن لم تكن قد أقلقته على الإطلاق، وأطال الحديث عن عدم مقدرة هذه المذاهب على معالجة المواقف التي تحتوي على الإشكالات التي نشأت من الثقافة المعاصرة، ويتفق هذا الموقف بالتأكيد مع وجهة النظر الذرائعية "الأداتية" عن الصدق، لكن النتيجة هي أن القارئ الفطن والناقد لكتبه يجد أن له انطباعًا، وهو أن وجهة النظر الطبيعية عن العالم مفترضة وليست مبرهنة، وهذا الانطباع ليس مبررًا، إذ

(١) ديوي، جون، الطبيعة والخبرة، صـ(٤١٤).

يفترض "ديوي" ببساطة أن زمن التفسيرات اللاهوتية والميتافيزيقية هو الماضي، وأن هذه التفسيرات –حسب رأيه– زائفة"[١].

لقد توسع "ديوي" في فكرة المنهج التجريبي ليشمل جميع أمور الحياة، فأطلق ثورة على الموروثات الدينية والأعراف والقوانين؛ لأنه يرى ضرورة خضوعها للنقد، والتمحيص، بل والانفصال عنها إذا لزم الأمر.

يقول "ديوي": "ما نحن في حاجة إليه هو الفحص البصير للنتائج الناجمة فعلًا عن المؤسسات والتقاليد المتوارثة؛ لننظر بعين الاعتبار إلى الطرق التي يمكن تعديلها بها عن قصد لصالح ما يتولد من نتائج مختلفة، وهذا هو المعنى المهم لنقل المنهج التجريبي من الميدان الفني للخبرة الطبيعية إلى الميدان الأوسع للحياة الإنسانية، فنحن نثق بهذا المنهج في تكوين معتقداتنا عن الأمور التي ليست لها صلة مباشرة بالحياة الإنسانية ... ولكن بوجه عام تعد فكرة اصطناع المنهج التجريبي في الأمور الاجتماعية وفي الأمور التي ظن أنها أدوم قيمة وأعلاها عند معظم الناس، نزولًا عن جميع المعايير وكل سلطة منظمة، ولكن من جهة المبدأ لا يعني المنهج التجريبي الفعل العشوائي الذي يجري بلا هدف، بل يدل على التوجيه بالأفكار والمعرفة"[٢].

ومن التغيرات التي ينشدها "ديوي" هذا التغير الذي يستهدف استبدال القيم والعقائد والقوانين الراسخة في المجتمعات بالمنهج التجريبي، فعند نقل هذا المنهج من دراسة الطبيعيات إلى دراسة الإنسان؛ فإنه سيستهدف المعايير والمبادئ والقواعد التي يعترف بها، وجميع العقائد والمذاهب عن الخير والمصالح كفروض نتيجة هذا النقل[٣]، فبدلًا من أن

(١) كوبلستون، فريدريك، تاريخ الفلسفة، صـ(٥٤١).
(٢) ديوي، جون، البحث عن اليقين، صـ(٣٠١).
(٣) موريس، تشارليز، رواد الفلسفة البراجماتية، صـ(١٩٢).

تكون ثابتة ثباتًا جامدًا ستُبحث على أنها أدوات فكرية يجب أن تختبر وتؤيد –وتعدل– عن طريق النتائج الحاصلة من العمل بها، وستفقد كل ادعاء بالغائية، وما يبعث على الغرابة والحزن في آن واحد أن كثيرًا من طاقة الإنسان قد تبددت في الدفاع بأسلحة مادية وروحية عن حقيقة العقائد الدينية والأخلاقية والسياسية، بالإضافة إلى ما أنفق من جهود لتبين صدق العقائد باختبارها عن طريق العمل(١).

ويرى "ديوي" أن أي شخص عندما يتكلم عن علاقة المعرفة –و بخاصة إذا استعملت لفظة العلم– بالمصالح الأخلاقية والدينية والميتافيزيقية؛ **فهناك خطران يتعرض لهما:**

أولهما: هذه الجهود المبذولة لاستخدام المعرفة العلمية في تعضيد المعتقدات الدينية والخلقية، إما بالرجوع إلى بعض الصور الخاصة التي تشيع فيها، وإما بطريقة غامضة لتأديتها وتهذيبها(٢).

والثاني: أن الفلاسفة يبخسون أهمية الحاجة إلى المعرفة ليفسحوا المجال لأمواج لا تنازع عليها من التعاليم الدينية والخلقية، ولعل بعض الأفكار السابقة تفضي ببعض الناس إلى تأويل ما قلناه على هذا النحو أو ذاك، ويقرر "ديوي" أنه بهذا لم يشر أي إشارة للحط من منزلة العلم، لكن المستهدف بالنقد هي تلك الفلسفة، وتلك العادة الذهنية اللتان على أساسهما يمتدح العلم بالباطل، وفضلًا عن ذلك فإن المعرفة أداتية، ولكن جميع مناقشاتنا كانت ترمي إلى امتداح الآلات والأدوات والوسائل، وترفعها إلى منزلة تكافئ الأهداف والنتائج، إذ بدون الوسائل لن تكون النتائج إلا عرضية منعزلة مزعزعة، فأن نسمي الأشياء المعروفة –

(١) ديوي، جون، البحث عن اليقين، صـ(٣٠٥).
(٢) السابق ذاته.

من حيث قدرتها أن تصبح أشياء معروفة– وسائل، هو أن نرفع لا أن نحط من قدرها(١).

وإذا كان ثمة نزعة عامة اتسمت بها فلسفة "ديوي" فهي النزعة التجريبية والتي اتخذت الخبرة العامة نقطة لانطلاقها، فالفيلسوف – فيما يرى "ديوي" – لا بد من أن يواجه شتى المشكلات ابتداء من التجربة البشرية العادية، "وليس جزع "ديوي" من التجريدات الميتافيزيقية القيمة والتركيبات اللفظية الملفقة، سوى مجرد صدًى لنزعته التجريبية المتطرفة"(٢).

كما أن "ديوي" كثيرًا ما شكك في قيمة الدراسات العامة التي تشغل بال بعض الميتافيزيقيين، حينما يبحثون على سبيل المثال في مشكلة المعرفة، خصوصًا في أسئلتهم عن إمكان المعرفة، وليس من شك – فيما يرى "ديوي" – أن عالم الفيزياء على حق حينما يبحث عن القوانين العامة للحركة، وأن الباحث الميتافيزيقي ليس على حق حين يجعل موضوع بحثه عن الحركة، وذلك لأن الفيلسوف الميتافيزيقي –فيما يرى "ديوي"– يثير كثيرًا من المشكلات العقيمة التي لا تقبل الحل(٣).

و"ديوي" لا يقتصر على القول–مع الوضعيين– بأن أمثال هذه المشكلات الميتافيزيقية لا تخرج عن كونها أشباه مشكلات، بل هو يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، فيقول: إنها "صيغ مريضة"، أو "تركيبات مريضة" "formulations Diseased"، ولا سبيل إلى التخلص من أمثال هذه المشكلات– في رأي ديوي–، اللهم إلا بالرجوع لتصحيح الميول الأصيلة التي تسببت في نشأتها.

(١) ينظر: ديوي، جون، البحث عن اليقين، صـ(٣٢٦).
(٢) إبراهيم، زكريا (الدكتور)، دراسات في الفلسفة المعاصرة، صـ(٦٢).
(٣) ينظر: إبراهيم، زكريا (الدكتور)، دراسات في الفلسفة المعاصرة، صـ(٦٣).

تعقيب:

ومن هنا بات واضحًا أن موقف البراجماتية من الميتافيزيقا كان متوقفًا على تفسيرها للحقيقة، فالبراجماتية في تفسيرها للميتافيزيقا انتهجت منهجًا تجريبيًّا متطورًا، فعالجت القضايا الميتافيزيقية من منظور براجماتي قائم على إخضاع كل ما وراء الحس إلى التجارب المعملية، فالحكم على صوابية الأشياء أو القول بوجودها أصبح عند البراجماتيين متوقفًا على الملاحظة.

لقد كانت البراجماتية ثورة ضد الميتافيزيقا، فمؤسسها الأول "تشارلز بيرس" جعل معيار صدق القضايا الميتافيزيقة أو كذبها قائمًا على النتائج العملية المباشرة التي يتم التحقق منها من خلال التجربة العلمية، أو بمعنى آخر جعل التجربة معيارًا لأي حقيقة أي فكرة، وبهذا استبعد البراجماتيون القضايا الميتافيزيقية من إطار المشكلات ذات المعنى، وذلك لأن القضايا الميتافيزيقية لا يمكن التحقق من نتائجها العملية بشكل مباشر، فهي غير قابلة للتحقق التجريبي، فالمذهب البراجماتي عند "بيرس" يدور على هذين المحورين الأساسيين، الأول: مشكلة المعنى أعني الحقيقة، والثاني: الاعتقاد، ويعني به الميتافيزيقا، والمحوران يلتقيان عند نقطة واحدة، وهي ما يحققه كل منهما من نتائج(١).

كما أن "وليم جيمس" جعل الحقيقة الميتافيزيقة خاضعة للتجربة، فإذا كان لها نتائج عملية مباشرة فهي ذات معنى، وإذا لم تنتج فليس لها معنى، كما اتضح أن "جون ديوي" اتخذ موقفًا رافضًا للميتافيزيقا بناه على أساس ذرائعي، أو نفعي، ويكمن خطر هذه الرؤية في أنها جعلت النتائج خاضعة للمنفعة.

(١) ينظر: محمود، زكي نجيب (الدكتور)، حياة الفكر في العالم الجديد، صـ(١٢٣).

ومن المشكلات المترتبة عن موقف البراجماتية من الميتافيزيقا أن "وليم جيمس" جعل الدين في تجربته الدينية المتطرفة دينًا يقوم على المزاج، فجعل للفرد الحق في أن يعتقد في أي فكرة، وأن يعتقد في أي دين، ولا يهم كونه صحيحًا أم فاسدًا؛ طالما أنه يشعر عند ممارسته بالطمأنينة والسلام، وعلى هذا فسر "جيمس" سبب إيمانه بالله، لا على أنه المستحق للعبادة دون سواه، ولكن لما استشعره في إيمانه من طمأنينة اكتسبها من تجربته الدينية المتطرفة، ومن النقد الموجه أيضًا للتجربة الدينية أنها كانت سببًا لفتح باب الإلحاد فـ "وليم جيمس" لا يرفض مطلقًا تبني معتقدات الملحدين، طالما أن هذا الاعتقاد يوفر لأصحابه النفع والفائدة(١).

كذلك لم يسلم "جون ديوي" من النقد خصوصًا فيما يتعلق بموقفه من الميتافيزيقا بناء على تفسيره للحقيقة التجريبية، فاعتبر البعض تفسير "ديوي" إساءة للحقيقة(٢)، ورأى فيها البعض أنها بمثابة بعث جديد للنفعية، وذهب بعض النقاد إلى اتهام "جون ديوي" باللاأدرية(٣).

لقد اعتبر البعض آراء "ديوي" فسحًا لباب الإلحاد؛ نظرًا لاعتقاده بنظرية التطور، وإيمانه بالمذهب الطبعي، فـ "ديوي" فيلسوف طبيعي لم يتوان يومًا عن نقد الميتافيزيقيا واحتقارها، لأنّ التفكير الميتافيزيقي عنده لا يبدي في واقع الأمر أدنى اهتمام بما يتّصل بسيطرة الإنسان العاقلة

(١) ينظر: ديورانت، ول، قصة الفلسفة، صـ(٦٢٣).

(٢) ينظر: مونييه، رينيه، البحث عن الحقيقة، ترجمة هاشم الحسيني، دار مكتبة الحياة بيروت، ١٩٨٥م، صـ(٩٨).

(٣) ينظر: فام، يعقوب، البراجماتية، صـ(٢٨٣)، وينظر أيضًا: ديوي، جون، الفردية قديمًا وحديثًا، ترجمة خيري حماد، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت، لبنان، ومؤسسة فرانكلين، نيويورك، د. ت، صـ(١٨٧).

على الطبيعة، ولأنّ التّفكير الميتافيزيقي يبدي اهتمامًا كبيرًا ببعض الأمور دون أمور أخرى، فهو بذلك في رأي "جون ديوي" يعوق البحث، ويصبغ الفلسفة بصبغة جامدة تحول بين النّاس وبين ما في العلم الطبيعي من إمكانات كافية، لذلك هاجم "ديوي" الدّين، معتبرا مذهبه وحده الكفيل بأن يؤدّي إلى إطلاق طاقات الإنسان الدّينية(١).

ويفصح "ديوي" عن موقفه الرافض للدين واعتقاده بالمذهب الطبيعي، حيث يقول: "إذا كنت قد قلت شيئًا، أيّ شيء عن الأديان كلّ على حدة، وعن الدّين بصفة عامّة ممّا قد يقع في النّفوس وقعًا عنيفًا، فقد قلت ما قلت لأنّني أعتقد اعتقادًا راسخًا أنّ ذلك الزعم الذي تدّعيه الأديان، وهو أنّ المثل العليا والوسائل الخارقة التي يمكن لها وحدها فيما يقال أن تتطوّر هي وقف عليها، أقول إنَّ ذلك الزَّعم يعوق تحقيق ما هو متضمّن في الخبرة الطبيعية من قيم دينية متميّزة بطابعها الدِّيني، ولهذا السَّبب أكون آسفًا لو أنَّ أحدًا ضلَّله كثرة استخدامي لصفة الدِّيني، بحيث يعتقد أنَّ ما قلته ليس إلا دفاعا مقنعا عمَّا يعدُّ أديانا"(٢).

وقد صرح "ديوي" في استهلال كتابه الخبرة والطبيعة بأن وصف فلسفته بأنها طبيعية، وذكر "سنتايانا" أن السبب الذي ساق ديوي لاعتناق المذهب الطبيعي أنه اللسان الناطق المخلص لروح العمل والتجربة والصناعة الحديثة(٣)، وذكر الدكتور الأهواني أن الدين الذي دعا إليه "جون ديوي" هو الدين الطبيعي(٤).

***

(١) مارتن، أي، مارتن، الديانة في أمريكا، صـ(٣٢٩).
(٢) ينظر: ديوي، جون، إيمان مشترك، صـ(٦٠).
(٣) ينظر: الأهواني، أحمد فؤاد (الدكتور)، جون ديوي سلسلة نوابغ الفكر، صـ(١٣٩).
(٤) السابق ذاته.

خاتمة البحث

وفي ختام هذا البحث "البراجماتية وموقفها من الميتافيزيقا"، توصلت إلى النتائج الآتية:

١- أن البراجماتية تعد واحدة من أهم المذاهب في الفلسفة المعاصرة، وهي أول مذهب فلسفي ينتسب إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وأنها في نشأتها كانت وثيقة الصلة بالفلسفات السابقة، فاسمها مشتق من الكلمة الإغريقية براجما –أي العمل–، وعبر "وليم جيمس" عن حقيقة البراجماتية بأنها "اسم جديد لطريقة قديمة في التفكير".

٢- أن المعنى الاصطلاحي للبراجماتية "منهج عملي يسعى إلى إيجاد حل للمشكلات والقضايا بما يحقق التوازن بين المبادئ والاتجاه العملي"، وأنها تيار فلسفي أمريكي تأسس على يد "تشارليز بيرس"، و"وليم جيمس"؛ قوامه أن السبيل لفهم المفاهيم لا بد أن يؤسس في ضوء مضامينها العملية، وأن وظيفة الفكر توجيه العمل، وأن الحقيقة في المقام الأول لا بد من اختبارها من جهة العواقب العملية للاعتقاد.

٣- أن المذهب البراجماتي يرى أن معيار صدق الآراء والأفكار إنما هو في قيمة عواقبها عملًا، وأن المعرفة أداة لخدمة مطالب الحياة، وأن صدق قضية ما هو كونها مفيدة، والبراجماتي بوجه عام: وصف لكل من يهدف إلى النجاح، أو إلى منفعة خاصة.

٤- أن بداية انطلاق البراجماتية كان من النادي الميتافيزيقي، الذي أسسه "تشارلز ساندرز بيرس" في يناير من عام ١٨٧٢م بمدينة "كامبريدج"، بولاية "ماساتشوستس" الأمريكية، وكان الغرض من إنشائه مناقشة قضايا الميتافيزيقا بغية السخرية منها، وأن أشهر رواد البراجماتية هم: "تشارليز بيرس" المؤسس الأول، و"وليم جيمس"، و"جون ديوي".

٥- أن البراجماتية انطلقت بعد كشف البعد الفيزيقي للمواد للبحث في مسائل الميتافيزيقا، فتناولت البحث عن الخير والجمال، والمعرفة والوجود، وتذرعت في البحث في مسائل الميتافيزيقا؛ بحجة البحث عن حل لإشكال حقيقة المعارف والمعلومات التي تصل إلينا.

٦- أن البراجماتية التقت بأصول الوضعية، فاصطبغت بصبغتها، حتى صارت كأنها امتداد لها، وإذا كانت الوضعية قد رفضت التسليم بالحقائق المطلقة والقضايا الميتافيزيقية، فإن الفلسفة البراجماتية العملية لا تتردد في قبولها واعتبارها صادقة متى كانت مفضية إلى نفع يتحقق في حياة الإنسان.

٧- أن البراجماتية لها عدة أنواع منها: براجماتية "بيرس"، و"وليم جيمس"، و"جون ديوي"، ونوع رابع ظهر في ألمانيا، وهو نوع متطرف من البراجماتية تأسس على يد "هانز فايهنجر"، سمي "فلسفة الوهم"، ونوع آخر هو براجماتية شيلر، وبراجماتية بابيني في إيطاليا، وهنري برجسون في فرنسا.

٨- أن البراجماتية اهتمت بالبحث في الحقيقة، وذلك من منطلق اعتقاد أصحابها بأن الفلسفة لم تنشأ عن مجرد التفكير النظري في مشاكل الوجود والكون والإنسان، بل جاءت من محاولة للتوفيق بين المعتقدات المنقولة والشائعة والتبرير العقلي لها، ويرى البراجماتيون أن عليهم استخراج النواة الأخلاقية الجوهرية من المعتقدات التقليدية في الماضي.

٩- أن البراجماتيين عرفوا الحقيقة بواسطة نتائجها العملية، فالحق عندهم هو ما ينجح، وهو المفيد النافع، وينطبق مبدأ النفع أيضًا على ما يتعلق بالاعتقاد الأخلاقي، فما هو حق هو ما يحقق في النهاية أكبر قدر من الخير عملًا.

١٠-أن الحقيقة عند "تشارلز بيرس" لا مضمون لها ولا معنى إلا بالقياس إلى آثارها العملية في حياة الناس، وعلى هذا فكل فكرة لا تنتهي إلى سلوك عملي في دنيا الواقع هي فكرة باطلة.

١١-أن "وليم جيمس" انطلق من نفس منطلق "بيرس" في تفسير الحقيقة، لكنه عدل عنه في تصور الحقيقة، فقرر بأن الشيء الذي تضيفه البراجماتية هو الجانب العملي فيما يخص امتلاك الأفكار الصحيحة وامتحانها، فالأفكار الصحيحة عند "جيمس" هي ما يتسنى لنا أن نقيم عليها الدليل فنتعقلها، وندفع بمشروعيتها وصدقها وصحتها، فنوثقها ونحققها، أما الأفكار الباطلة فهي التي لا نستطيع فعل ذلك بالنسبة لها.

١٢- أن الحقيقة عند "جيمس" هي من صنع الإنسان، وهي "القيمة الفورية للفكرة"، وأن مدلول الفكرة عنده -أيًّا كان نوعها- هو نتائجها الفعلية التي تؤدي إليها، وتلك النتائج الفعلية هي البرهان القاطع على صحة الفكرة، فليس صحة الفكرة هو انطباقها على شيء ذهني أو خارجي موجود قبل وجود الفكرة، وإذا وافق البراجماتي على صدق فكرة معينة فإنه يوافق أيضًا مع كل ما تقوله عن موضوعها.

١٣- أن "جون ديوي" في تفسير الحقيقة انتهى إلى أن جميع الأفكار والمعتقدات والقيم لا بد أن تخضع للتجربة واختبار قابليتها للعمل، فالعمل هو دليل اختبار القيم، وما يتحصل عنها من منافع، فضمان بقائها واستحسانها في المجتمع يرجع إلى قيمتها النفعية، وأن فلسفة "ديوي" في الحقائق والأفكار والقيم ترجع إلى الخبرة العملية، ولهذا سمى فلسفته بالأداتية، أو الذرائعية.

١٤-أن أول سمة من سمات المنهج البراجماتي نجدها مرتبطة بالقاعدة التي رسخها "تشارلز بيرس"، وهي: الأخذ بالنتائج العملية التي ندرك أن تفكيرنا قد يكون على علاقة بها، وعندئذ يكون إدراكنا لهذه النتائج هو كل مفهومنا عن هذا الموضوع، وقد اعتبرت هذه القاعدة أن النتائج هي مقياس صدق الفكرة أو بطلانها.

١٥- أن البراجماتيين ربطوا بين الحقيقة والمنفعة والنتائج، وجعلوا المنفعة المادية هي المحور الرئيس الذي تدور حوله الحياة ونسوا أن الحياة أيضًا إنما تقوم على أساس من الواجب لذات الواجب، والحق لذات الحق، والخير والمحبة والأخوة.

١٦- أن المنهج البراجماتي لا يصلح لحل مشكلات الفكر، فهناك قضايا كثيرة هي حق في ذاتها ومع ذلك ليس لها نتائج عملية، فلا يستطيع هذا المنهج أن يفصل فيها برأي، ولذلك توقف "جيمس" في مشكلة القدم والحدوث فلم يقطع فيها برأي، وتوقف في كثير من المشكلات التي لا تعطي قيمة فورية، وعندئذ أصبح المنهج هروبًا من معالجة المشكلات وليس حلًّا لها.

١٧- أن مسائل الميتافيزيقا من أهم ما يشغل تفكير رواد البراجماتية، ودليل ذلك أنهم أطلقوا على هذا النادي اسم "النادي الميتافيزيقي"، ومنه انطلقت أفكار البراجماتية.

١٨- أن "تشارليز بيرس" قرر أنه لكي تدرس الميتافيزيقا دراسة صحيحة فلا بد من أن تتخلص من تفسيرات اللاهوتيين لها، ولا يتم ذلك إلا ببحثها عن طريق مناهج العلوم الحقيقية التجريبية التي تعتمد على الملاحظة، وبهذا تكون براجماتية "بيرس" نوعًا من الوضعية، وكان "بيرس" دائمًا ما يسخر من الميتافيزيقا.

١٩- أن الميتافيزيقا عند "بيرس" لا بد أن تخضع للملاحظة والتجربة، وقد اختصر تعريفها بأنها: "هي علم الحقيقة"، فهي عندئذ لا تشمل الموجود بالفعل فحسب، بل إنها أيضًا تشمل الموجود الواقعي الذي يمكن أن يخضع للتجربة، وقد فسر "بيرس" الميتافيزيقا بثلاث حالات ميتافيزيقية أو مقولات للوجود الفعلي، هي: الحالة الأولى: ما يسميها بالمصادفة، وهي لفظ استخدم كي يعبر بدقة عن خصائص الحرية أو التلقائية، والحالة الثانية من حالات الوجود هي القانون، والقوانين ذات أنواع متعددة، لكن الوجود كله حسب تفسير "جيمس" هو نتيجة للتطور، والصدفة المطلقة في تفسير "بيرس" هي الحالة البدائية للكون، وأنها تفسير للتطور، والتطور عنده يعني أيضًا اكتشاف غاية محددة، وهي ما فسرها بالعلة الغائية، الحالة الثالثة من حالات الوجود وهي العادة، أو الميل إلى تكوين عادة. ومع ذلك، يجب أن تفهم كلمة العادة، بمعنى واسع؛ لأن كل الأشياء– كما يرى "بيرس"– تمتلك ميلًا إلى ترسيخ عادات، سواء أكانت موجودات بشرية، أم حيوانات، أم نباتات، أم جواهر كيميائية، والقوانين التي تقرر اطرادات أو ألوانا من الانتظام هي نتاج لفترات طويلة من تكوين هذه العادة، فالكون عند "بيرس" مجموعة ملتصقة من العادات التي تجعله يعمل بدرجة عالية من الاطراد الآلي.

٢٠- أن تفسير "بيرس" للميتافيزيقا لا يخرج من تصوره للحقيقة، وعلى أساسها بنى مذهبه، فلكي يتيقن المرء من معنى تصور ذهني يجب عليه أن ينظر إلى النتائج العملية، التي قد تنتج فيما يمكن أن يتصوره بالضرورة من صدق ذلك التصور، ويشكل مجموع هذه النتائج المعنى الكلي لتصورها.

٢١- أن معنى إرادة الاعتقاد عند "بيرس" قد لخصه في مقالة له عن تثبيت الاعتقاد، وهو أن خير الوسائل لتثبيت الاعتقاد يكون باتباع

المنهج العلمي الذي من شأنه أن يجعل صواب ما يعتقده الإنسان أمرًا يشاهده كل الناس، فتخرج الفكرة من مجرد كونها اعتقادًا ذاتيًّا عند أحد الأفراد لنجعلها حقًّا عامًّا للناس جميعًا.

٢٢- أن البراجماتية ومنذ الوهلة الأولى بقيادة "بيرس" كانت ثورة ضد الميتافيزيقا، وأنه بوضعه النتائج العملية المباشرة التي يتم التحقق منها عبر التجربة الموضوعية المباشرة، معيارًا للصدق أو الكذب، أو بمعنى آخر معيارًا لمعنى أي فكرة أو قضية، يكون قد استبعد القضايا الميتافيزيقية من إطار المشكلات ذات المعنى؛ لأنها لا يمكن إخضاعها للتجربة العملية.

٢٣- أن "وليم جيمس" عرف الميتافيزيقا بأنها العلم بأعم المبادئ المنصبة على الحقيقة الواقعية، كما فسر الدين بأنه "ما هو فوق الطبيعية".

٢٤- أن البراجماتية طبقت منهجها التجريبي على قضايا الميتافيزيقا، فلا بد عند الاعتراف بالميتافيزيقا أن تكون لها نتائج عملية، فمعنى صدق أي عبارة يكمن في النتائج، وبالتحديد في نتائجه الناجحة أو الحسنة.

٢٥- أن الدين عند "جيمس" مجرد أمر شخصي في جوهره، فليس المهم بالنسبة له أن نعرف الأسس النظرية التي تقوم عليها عقائده، بل المهم الثمار والنتائج المترتبة على قبولنا به، والدين عند "جيمس" لفظ عام يشمل كل ما هو وثيق الصلة بالحياة؛ لأن كل منا يحيا وفقا لمزاجه الديني، سواء كان معتقده صحيحًا أم فاسدًا، وهذا ما أطلق عليه التجريبية الدينية المتطرفة.

٢٦- أن تجريبية "جيمس" المتطرفة جعلت الواقعة الجوهرية للدين هي التجربة الدينية التي يمارسها الإنسان، بحيث إنه لا يهتم مطلقًا بنوع

التجربة أيًّا كان نوع هذا الدين، فما يهم "جيمس" هو ما يتمخض من نتائج ذات نفع وفائدة عن هذه التجربة.

٢٧- أن موقف "ديوي" من الميتافيزيقا تمثل في معارضة للتيارات الفلسفية القائلة بفطرية المعرفة واحتواء العقل على مبادئ أولية لا تعود في شيء من مصادرها إلى التجربة، وأنه حصر طرق المعرفة والميتافيزيقا في المنهج التجريبي، فلا مجال لمعرفتهما إلا بالعقل، وأنه جعل من العادات مكونًا مهمًّا يدخل في تكوين الخبرة، وأنها يرتكز عليها فهم الميتافيزيقا.

٢٨- يرى "ديوي" أن التجارب العملية الناتجة عن استخدام المنطق التجريبي أنهت ما ساد من اعتقادات ميتافيزيقية طبعت وشحنت العلم القديم بالبحث عن علل مطلقة، متعالية باطنية كانت أم خارجية، وتم على أساسه استبدال الفهم الميتافيزيقي التقليدي للظواهر الطبيعية بفهم وضعي حديث، كما اصطلح عليه عند "أوجست كونت" بالوضعية.

٢٩- يقرر "ديوي" أن الميتافيزيقا إذا كانت تعني الوجود أو الأنطولوجيا فإنها عند تفسيرها لا بد أن يتحقق فيها عملُ الفروض، مع ضرورة خضوعها للمراجعة مثل فروض العلم الفيزيائي، ففروض وجود العالم لا بد من خضوعها للتجربة عند "ديوي"، وهنا يظهر تأثر "ديوي" بأفكار "هيجل".

٣٠- أن "ديوي" توسع في فكرة المنهج التجريبي ليشمل جميع أمور الحياة، فأطلق ثورة على الموروثات الدينية والأعراف والقوانين؛ لأنه يرى ضرورة خضوعها للنقد، والتمحيص، بل والانفصال عنها إذا لزم الأمر.

٣١- لم يسلم "جون ديوي" من النقد خصوصًا فيما يتعلق بموقفه من الميتافيزيقا بناء على تفسيره للحقيقة التجريبية، فاعتبر البعض تفسير

"ديوي" إساءةً للحقيقة، ورأى فيها البعض أنها بمثابة بعث جديد للنفعية، وذهب بعض النقاد إلى اتهام "جون ديوي" باللاأدرية.

٣٢- أن آراء "ديوي" في الميتافيزيقا تعد فسحًا لباب الإلحاد؛ نظرًا لاعتقاده بنظرية التطور، وإيمانه بالمذهب الطبعي، فـ "ديوي" فيلسوف طبيعي لم يتوان يوما عن نقد الميتافيزيقيا واحتقارها؛ لأنّ التفكير الميتافيزيقي عنده لا يبدي في واقع الأمر أدنى اهتمام بما يتّصل بسيطرة الإنسان العاقلة على الطبيعة.

توصيات البحث.

يوصي البحث بتوصيات، منها:

١- دراسة الفلسفة المعاصرة، والوقوف على مستجدات الدراسات الفلسفية.

٢- زيادة عدد ساعات مادة الفلسفة الحديثة المقررة على طلاب العقيدة والفلسفة، لتحسين نواتج التعلم، بما يضمن الحفاظ على العقيدة الإسلامية، وتخريج داعية معاصر قادر على تفنيد الشبهات، ولتحقق التكافؤ مع الأقسام المناظرة خارج جامعة الأزهر.

٣- أن تشتمل الخطط البحثية لأقسام العقيدة والفلسفة على دراسة الفلسفة الحديثة والمعاصرة، وإخراج ذلك من حيز الاقتراح إلى التطبيق العملي والتنفيذ.

٤- أن يشارك المتخصصون في العقيدة والفلسفة في لجان مراجعة الكتب الفلسفية الصادرة عن المركز القومي للترجمة والهيئة العامة للكتاب؛ لمعالجة القصور في صياغة بعض الترجمات.

***

قائمة المصادر والمراجع.

١- إبراهيم، زكريا (الدكتور)، دراسات في الفلسفة المعاصرة، طبعة مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٦٨م.

٢- أمين، عثمان (الدكتور)، شيلر، سلسلة نوابغ الفكر الغربي، طبعة دار المعارف، مصر، ١٩٩٨م.

٣- إن، بيك آر، دليل الفلسفة الاجتماعية، طبعة مكملان، نيويورك، ١٩٧٩م.

٤- أنجيوس، ستيفن، قاموس أكسفورد، مطبوعات جامعة أكسفورد، لندن، ٢٠١٥م.

٥- الأهواني، أحمد فؤاد (الدكتور)، جون ديوي،، سلسلة نوابغ الفكر، طبعة دار المعارف القاهرة، ط الثالثة، ١٩٨٧م.

٦- بترو، إيميل، الدين والعلم في الفلسفة المعاصرة، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٣٠١٣م.

٧- برهيه، إيميل، تاريخ الفلسفة (الفلسفة الحديثة)، ترجمة جورج طرابيشي، طبعة دار الطليعة بيروت، لبنان، ط الأولى، ١٩٨٧م.

٨- البطل، سفيان، بناء المعرفة على أساس مفهوم الحقيقة عند وليم جيمس، طبعة مركز نماء للبحوث والدراسات، د.ت.

٩- بو ملحم، علي (الدكتور)، نحو رؤية جديدة فيما وراء الطبيعة، طبعة دار المواسم، لبنان، ط الأولى ١٩٩٩م.

١٠- بوبكين، ريتشارد،/ وسترول، آفريوم، جعل الفلسفة بسيطة، "دليل كامل لأهم المفكرين والنظريات في العالم"، طبعة نيويورك الولايات المتحدة الأمريكية، ٢٠١٤م.

١١- بول دروا، روجيه، أساطين الفكر، عشرون فيلسوفًا صنعوا القرن العشرين، ترجمة الدكتور/ علي نجيب إبراهيم، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ٢٠١٢م.

١٢- بيرس، تشارلز ساندرز، كيف نجعل أفكارنا واضحة؟، ضمن مجموعة الأبحاث، طبعة لونجمان، ١٩٠٢م.

١٣- بيري، رالف بارتون، أفكار وشخصية وليم جيمس، ترجمة محمد علي العريان، طبعة دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٥م.

١٤- تايير، هـ، بيرس والحقيقة، ضمن تاريخ الفلسفة في أمريكا في ٢٠٠ عام ١٩٧٠م.

١٥- جديدي، محمد (الدكتور)، فلسفة الخبرة، جون ديوي نموذجًا، طبعة المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، تونس، د.ت.

١٦- جماعة من فلاسفة الإنجليز المعاصرين، طبيعة الميتافيزيقا، طبعة عويدات، بيروت، لبنان، د.ت.

١٧- جود، سي، آي، مدخل إلى الفلسفة المعاصرة، ترجمة: محمد شفيق، طبعة مؤسسة نوفل، بيروت، لبنان، ١٩٨١م.

١٨- جيمس، وليم، معنى الحقيقة، ترجمة أحمد الأنصاري، طبعة المركز القومي للترجمة بالقاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م.

١٩- جيمس، وليم، البراجماتية: اسم جديد لبعض الطرق القديمة في التفكير، طبعة لونجمان، نيويورك، ١٩٤٩م.

٢٠- جيمس، وليم، البراجماتية، ترجمة الدكتور محمد العريان، طبعة دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٥م.

٢١- جيمس، وليم، العقل والدين، ترجمة الدكتور/ محمود حب الله، طبعة دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٤٩م.

٢٢- جيمس، وليم، بعض مشكلات الفلسفة، ترجمة الدكتور/ محمد فتحي الشنيطي، طبعة وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، ١٩٦٢م.

٢٣- جيمس، وليم، معنى الصدق، طبعة لونجمان، لندن، ١٩٠٤م.

٢٤- الحاج، كميل، الموسوعة الميسرة في الفكر الفلسفي والاجتماعي، طبعة مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، ط الأولى، سنة ٢٠٠٠م.

٢٥- حنفي، حسن (الدكتور)، مقدمة في علم الاستغراب، طبعة الدار الفنية، مصر، ١٩٩١م.

٢٦- الحنفي، عبد المنعم، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، طبعة مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٠م.

٢٧- الخشت، محمد عثمان (الدكتور)، الدين والميتافيزيقا في فلسفة هيوم، طبعة دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٩٧م.

٢٨- دريدا، جاك، استراتيجية تفكيك الميتافيزيقا، ترجمة الدكتور/ عز الدين الخطابي، طبعة أفريقيا الشرق، المغرب، ٢٠١٣م.

٢٩- ديورانت، ول، قصة الفلسفة، طبعة مكتبة المعارف بيروت، الطبعة السادسة، ١٩٨٦م.

٣٠- ديوي، جون، مقالات في المنطق التجريبي، " **Essays in experimental logic**"، طبعة نيويورك، الولايات المتحدة الأمريكية، الطبعة الثانية، ١٩٥٨م.

٣١- ديوي، جون، إعادة البناء في الفلسفة، ترجمة أحمد الأنصاري، طبعة المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م.

٣٢- ديوي، جون، البحث عن اليقين، ترجمة الدكتور/ أحمد فؤاد الأهواني، طبعة المركز القومي للترجمة، ٢٠١٥م.

٣٣- ديوي، جون، الجمهور ومشكلاته، طبعة شيكاغو، الولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٥٤م.

٣٤- ديوي، جون، الديمقراطية والتربية، ترجمة منى عفراوي، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٥٤م.

٣٥- ديوي، جون، الطبيعة البشرية والسلوك الإنساني، ترجمة محمد لبيب النجيحي، طبعة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٦٣م.

٣٦- ديوي، جون، الفردية قديمًا وحديثًا، ترجمة خيري حماد، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت، لبنان، ومؤسسة فرانكلين، نيويورك، د. ت.

٣٧- ديوي، جون، الفن خبرة، ترجمة الدكتور/ زكريا إبراهيم، طبعة دار النهضة العربية، القاهرة، ومؤسسة فرانكلين، نيويورك، والولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٦٣م.

٣٨- ديوي، جون، المنطق نظرية البحث، ترجمة الدكتور/ زكي نجيب محمود، طبعة المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٠م.

٣٩- ديوي، جون، إيمان مشترك، طبعة نيويورك، الولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٣٤م.

٤٠- ديوي، جون، تجديد في الفلسفة، ترجمة أمين قنديل، طبعة مكتبة الأنجلو، القاهرة، د.ت.

٤١- ديوي، جون، كيف نفكر؟، طبعة هيث – نيويورك، الولايات المتحدة، ١٩٣٣م.

٤٢- ديوي، جون، نمو البراجماتية، مقال من كتاب فلسفة القرن العشرين، تأليف رونز واجبورت، ترجمة: عثمان نوية، ط دار الكتاب العربي، القاهرة.

٤٣- راسل، برتراند، تاريخ الفلسفة الغربية، ترجمة الدكتور محمد فتحي الشنيطي، طبعة الهيئة المصرية للكتاب، ٢٠١٢م.

٤٤- رايت، وليم باركلي، تاريخ الفلسفة الحديثة، ترجمة محمود سيد أحمد، طبعة دار التنوير، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م.
٤٥- روزنتال، م، و يودين، ب، الموسوعة الفلسفيّة، ترجمة سمير كرم، طبعة دار الطليعة بيروت، لبنان، ط الأولى، ١٩٨٧م.
٤٦- ريونيز، د. د، ، فلاسفة القرن العشرين، طبعة نيويورك، ١٩٤٣م.
٤٧- زقزوق، محمود حمدي (الدكتور)، تمهيد للفلسفة، طبعة دار المعارف القاهرة، ط الخامسة، ١٩٩٤م.
٤٨- شاخت، ريتشارد، رواد الفلسفة الحديثة، ترجمة الدكتور أحمد حمدي محمود، طبعة وزارة الثقافة، مصر، ١٩٩٧م.
٤٩- شنيدر، هربرت، تاريخ الفلسفة الأمريكية، ترجمة الدكتور/ محمد فتحي الشنيطي، طبعة مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٤م.
٥٠- الشنيطي، محمد فتحي (الدكتور)، وليم جيمس، طبعة مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة، ١٩٥٧م.
٥١- الشنيطي، محمد فتحي،(الدكتور)، البراجماتية لوليم جيمس، مجلة تراث الإنسانية، العدد الثامن، أغسطس ١٩٦٣م.
٥٢- صالح، سعد الدين، (الدكتور)، التجربة الدينية في الفلسفة البراجماتية، حولية كلية أصول الدين بالزقازيق، العدد الثالث، يوليه، ١٩٩١م.
٥٣- صليبا، جميل، المعجم الفلسفي، طبعة دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٩٨٢م.
٥٤- طرابيشي، جورج، معجم الفلاسفة، طبعة دار الطليعة بيروت، لبنان، ط الثالثة، ٢٠٠٦م.
٥٥- الطويل، توفيق (الدكتور)، الفلسفة الخلقية نشأتها وتطورها، طبعة دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٧م.

٥٦- الطويل، توفيق (الدكتور)، مذهب المنفعة العامة في فلسفة الأخلاق، طبعة مكتبة النهضة المصرية، ط الأولى، ١٩٥٣م.

٥٧- الطويل، توفيق، (الدكتور)، أسس الفلسفة، طبعة مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط الثالثة، د.ت.

٥٨- غلاب، محمد (الدكتور)، المذاهب الفلسفية العظمى في العصور الحديثة، طبعة دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط الأولى، ١٩٨٤م.

٥٩- فام، يعقوب، البراجماتية أو مذهب الذرائع، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨م.

٦٠- فايهينجر، هانز، كانط وفلسفة كأن، طبعة مجلة الدراسات الكانطية، ألمانيا، ١٩١١م.

٦١- كاز، بيتر، تاريخ الفلسفة في أمريكا خلال ٢٠٠ عام، ترجمة حسني نصار، طبعة مكتبة الأنجلو، القاهرة، ١٩٨٠م.

٦٢- كانط، إيمانويل، تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق، ترجمة الدكتور/ عبد الغفار مكاوي، منشورات الجمل، كولونيا، ألمانيا، ط الأولى، ٢٠٠٢م.

٦٣- كانط، إيمانويل، مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة، ترجمة نازلي إسماعيل، ومحمد فتحي الشنيطي، طبعة موفم للنشر، الجزائر، ١٩٩١م.

٦٤- كرم، يوسف (الدكتور)، الطبيعة وما بعد الطبيعة، طبعة مؤسسة هنداوي، القاهرة، ط الأولى، ٢٠١٤م.

٦٥- كرم، يوسف (الدكتور)، تاريخ الفلسفة الحديثة، طبعة دار المعارف، القاهرة، ط الخامسة، ١٩٨٦م.

٦٦- كوبلستون، فريديريك، تاريخ الفلسفة، طبعة المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط الأولى، ٢٠٠٢م.

٦٧- كولينز، جيمس، الله في الفلسفة الحديثة، ترجمة فؤاد كامل، طبعة دار قباء، القاهرة، ١٩٩٨م.

٦٨- محمود، زكي نجيب (الدكتور)، حياة الفكر في العالم الجديد، طبعة دار الشروق، القاهرة، ط الثانية، ١٩٨٢م.

٦٩- محمود، زكي نجيب (الدكتور)، موقف من الميتافيزيقا، طبعة دار الشروق، القاهرة، ط الثالثة، ١٩٨٧م.

٧٠- محمود، زكي نجيب (الدكتور)، نظرية المعرفة، طبعة وزارة الإرشاد القومي، ط الأولى، ١٩٥٦م.

٧١- مريام، وبيستر، قاموس وبيستر للسيرة الذاتية، طبعة سبرينغفيلد، ماساتشوستس، الولايات المتحدة، ١٩٦٠م.

٧٢- المعجم الفلسفي، طبعة مجمع اللغة العربية، القاهرة، ١٩٧٣م.

٧٣- مهران، محمد (الدكتور)، مدخل إلى الفلسفة المعاصرة، طبعة دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٤م.

٧٤- موريس، تشارليز، رواد الفلسفة البراجماتية، ترجمة الدكتور/ إبراهيم مصطفى إبراهيم، طبعة دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، ٢٠١١م.

٧٥- مونييه، رينيه، البحث عن الحقيقة، ترجمة هاشم الحسيني، طبعة دار مكتبة الحياة بيروت، ١٩٨٥م.

٧٦- ميناند، لويس، النادي الميتافيزيقي، طبعة نيويورك، ٢٠٠١م.

٧٧- نارانج، جوبي تشاند "غالب: المعاني المبتكرة والعقل البارع" " **Ghalib: Innovative Meanings and the Ingenious**

Mind"، مطبوعات جامعة أكسفورد، بالاشتراك مع نيوديلهي بالهند، ٢٠١٧م.

٧٨- وسب، فان، الحكماء السبعة، ترجمة يوسف الخال، وأنيس فخوري، طبعة المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان، ط الأولى، ١٩٦٣م.

٧٩- وهبه، مراد، قصة الفلسفة، طبعة دار الثقافة الجديدة، القاهرة، ١٩٨٠م.

٨٠- ويس، بول، قاموس السيرة الذاتية الأمريكية، طبعة الولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٣٤م.

***